الفصل الخامس عشر

الإبستمولوجية العربية والإسلامية في مدة ما بعد الإستشراق

تمهيد:

هناك عوامل محفّزة قد دفعت إلى اختيار عنوان هذا الفصل المثير للاعتقاد السائد بأن العصر الذي ابتدأت فيه الحركة الإستشراقية ـ بمعنى أخصّ الشرق الإسلامي والحضاري ـ في أوربا الوسطى، وما رافق هذه الحركة العلمية الإنسانية من نشاط وفاعلية في إنجازات موضوعية وقيّمة ليس من السهل نكرانها أوإغفالها. فضلاً عن الدراسات والتفسيرات والرؤى المتعّصبة والمتشنّجة أو تلك التي لم تكن متورطة ضمن عمليات البعثات التبشيرية؛ فقد كانت تلك الدراسات الموضوعية منها بدرجة أولى رصينة وجديرة بالقراءة لجديّتها وجديّة تفسيراتها إلى حدٍّ أنها بقيت حيّة ومعتمدة من قبل المستشرقين الأوربيين والأمريكيين، فضلاً عن أنها مهمة بالنسبة إلى الباحثين العرب والمسلمين. ولاسيما تلك التحقيقات العلمية الرائعة لكثير من المخطوطات الإسلامية في ميادين عدّة، وما ألحق بها من مقدّمات تحليلية ومن فهارس مبدعة في الصنع، أو تلك الإسهامات التي لم تعمّر طويلاً ولم تفرض إلا دوراً محدوداً وقصير الأمد إذ سرعان ما تحجّم تأثيرها ومن ثمّ بعد ذلك محيت من الذاكرة التاريخية.

فالإعتقاد بما يتعلق بهذا الكمّ الغزير من هذه الإنجازات والفعّاليات قد وصل إلى نهاية له وفي مرحلة معبّرة بمرحلة ما بعد تحقيق الكثير من أغراضه وأهدافه، تلك الأهداف التي لازمت مرحلة التأسيس فصاعداً، وهي أهداف تعدّ أيضاً ملازمة خطوة بخطوة مع ولاءات وانتماءات وارتباطات المستشرقين إن كانت سياسية ومخابراتية إن صحّ هذا النعت، وإن كانت علمية محض منطلقة من حبّ الإستطلاع وحبّ التعرف على الآخر أو ملازمة لتطوّر مناهج البحث العلمي وتوسّع المعرفة الإنسانية بشأن الآخر غير الأوربي وغير الأمريكي الذي كان في نظر منظّريّ نظريات الجنس الحضارية هو في نظرهم أقل مرتبة حضارية من حضارة الجنس الأشقر، الحضارة الغربية، التي ينتمي إليها هذا المستشرق أو ذاك. وينطّبق هذا حتى على تلك الدراسات التي تحدّدت أهدافها بالأهداف التبشيرية المفرطة بالنزعة الأحادية الدينية والمفرطة بالتعصب والحقد والكراهية لكلّ ما له علاقة بالدين الإسلامي وهو الدين الآخر الذي

كان وما زال المبشرون معبئين ضده بمشاعر الكراهية والضغينة.

والحقيقة فإن المحرّكات التي دفعت إلى وضع عنوان للفصل كهذا متعددة منها :-

١- فإذا ما صدقّنا ـ وهو كذلك ـ مقولة للمستشرق البروفسور برنارد لويس B.Lewis في أثناء محاججته للمستشرق الفلسطيني ـ الأمريكي أدوارد سعيد مؤلف كتاب (الإستشراق) الذي ظهر في أواخر السبعينيات من القرن العشرين حول الإستشراق مصطلحاً وتاريخاً، موجّهاً لومه للأستاذ سعيد بان محاججة الأخير ومواقفه من الإستشراق كانت ضعيفة وغير واردة على الأطلاق فلماذا؟ وجواب برنارد لويس هو لأن تعبير (الإستشراق والمستشرقون) قد انسدل عليه الستار المعرفي في عام ١٩٧٣ أي في المؤتمر المئوي الأخير الذي عقده المستشرقون في باريس. فحسب ما سنذكره آنفا أن المؤتمرين من مستشرقي أوربا الشرقية والغربية والأمريكان والإسرائيليين قد وصلوا إلى قرار مفاده لزوم التوقف عن استخدام أوترديد هذا التعبير في المؤتمرات اللاحقة. وذلك لأنه غير موائم فكرياً وسياسياً لطبيعة المرحلة ولتطوّر العلاقات بين الغرب والشرق أو بين الغرب والإسلام أو بين الثقافة الغربية ـ الأمريكية وبين العلماء العرب والمسلمين من الشرق الأوسط. والسؤال ما زال مطروحا لماذا؟ وذلك لأن هؤلاء العلماء كانوا غير مقتنعين بل كانوا مبغضين وكارهين لمصطلح (الإستشراق) فهو يعني أن رقعتهم الجغرافية (الشرق) صارت مفردة خاضعة لمناقشة المستشرقين ولهذا فهم يرفضون أن يكون تراثهم الشرقي والإسلامي محلّ ازدراء أو استهجان في مناقشات جلسات مؤتمراتهم المائة التي انعقدت أولها في عام ١٨٧٣.

فيا ترى ما قدر المصداقية في مثل هذه النتيجة المهمة جدّا التي أدّت إلى استبدال مصطلح (الإستشراق والمستشرقون) بمصطلح علمي آخر لا يظهر في حقيقته فحوى ومضمون المستشرقين أو حتى الدراسات المعنيّة بتراث الشرق وتاريخه في الإسلام؟ وهل بالفعل قد انتهى العمل به بعد مؤتمر عام ١٩٧٣؟ فإن كان الأمر كذلك عندئذ يكون ردُّ المستشرق برنارد لويس قوياً وقاطعاً وملزماً بالنسبة إلى كتاب أدوارد سعيد وآرائه، وهو الكتاب الذي فرض شعبية في سعة رواجه بين صفوف المثقفين العرب، ولاسيما بعد ترجمته إلى اللغة العربية وطبعه.

بداية علينا إبداء نقطة ملاحظة بخصوص عنوان الفصل (ما بعد الإستشراق) فهو يوحي وكأن هذا الميدان أو هذا العلم أو هذه الحركة قد بلغت مرحلتها الأخيرة بما

يشابه حركة توديع مرحلة قد انتهت فعلا والإنتقال إلى ما بعدها من مرحلة لعلها توصف بالجدّة والتميز.

والمعتقد بأن العصر الذي بدأ فيه تحرك الحركة الإستشراقية في أوربا الوسطى وروسيا ثم بعد ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن الثامن عشر أو ربما في مدة أبعد من ذلك، وما رافق هذه الحركة من نتائج لغوية وتاريخية كبيرة لا يستهان بها.

٢- ففي حال قبولنا صحة الرأي المذكور آنفا فهل يعني أن توقف علماء أوربا وأمريكا وإسرائيل عن إخضاع تاريخ الشرق الأوسط وحضارته وتاريخ المسلمين وحضارتهم أو تاريخ العرب أو الفرس أو الأتراك أو الهنود أو غيرهم وشعوبهم القاطنين في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة. وهو سؤال وجيه من جهة وغريب ومتناقض مع نفسه من جهة أخرى، وذلك لأن اهتمام الغرب بالإسلام أو بالشرق الأوسط وبالتاريخ الإسلامي والدين الإسلامي مستمر دون انقطاع والأحرى أنه لم ينقطع وهذا ما سنقف عليه في فصل (أوجه من التناقض في مواقف المستشرقين في الباب الأخير)، فلم يتوقف بعد سنة ١٩٧٣، وذلك يرتبط ارتباطاً قوياً بالمحصّلة التي قرّرها المؤتمرون أنفسهم من عملية استبدال ـ لا غير ـ لعنوان المؤتمرات اللاحقة إلى عنوان جديد لا علاقة له إطلاقاً بالمفاهيم التي ابتدأت فيه محاور ومناقشات المؤتمرات. صار العنوان الجديد (مؤتمر العلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشمالية)[1] وليس (مؤتمر الإستشراق والمستشرقين). وهذا العنوان ـ كما يبدو ـ لا ينطوي على جاذبية أو حركة كالتي يتضمنها ويكتنزها مصطلح الإستشراق. فضلاً عن أنه عنوان لا يشير الى اهتمام خاص بتاريخ الشرق وحضارته؛ فالإشارة إلى العلوم الإنسانية حصراً لا تعادل الإشارة إلى الشرق والعلوم الشرقية. وتحديد العنوان جغرافياً بآسيا هو تحديد جغرافي واسع جداً لا يقارن بتحديد مفهوم الشرق الذي قد يمثّل تحديداً أكثر وضوحاً وتخصيصاً ومباشرة. كذلك الحال بالنسبة إلى التحديد الأخص الآخر (شمال أفريقيا)؛ ويتراءى لنا بأنه تحديد متعمّد ومقصود ليخدم هدفاً محدّداً، فلماذا شمال أفريقيا دون جنوبها أيضاً ؟ بل لماذا شمال أفريقيا دون أفريقيا بصورة عامة؟ أو بدون

---

(١) ينظر بحث (خصائص النصّ الاستشراقي) ترجمة وإعداد كافل يوسف حسين في (الاستشراق) العدد الثاني ١٩٨٧، بغداد، ص ١١٧، أيضاً الكتاب الموسوم (الاستشراق بين دعاته ومعارضيه) ترجمة د. هاشم صالح، بيروت ١٩٩٤، ص ٦-٧.

أفريقيا والأندلس مثلاً؟ كذلك فما الهدف من وراء تجزئة الشرق الأوسط ذي المفهومية الجغرافية التاريخية الواضحة إلى قدر كبير بدلاً من تفريقهما عبر محيطين، علماً بأنهما يجتمعان في روابط تاريخية واجتماعية وثقافية ودينية إلى حدّ كبير. فهل هو مجرد عملية تفتيت لمفهومية العالم الإسلامي وعالم الشرق؟

٤- والغريب في التساؤلات المثارة آنفا وهي تساؤلات مشروعة وواقعية عن الموضوع فإن الدراسات التي نوّه إليها عنوان المؤتمرات الإستشراقية الجديد لا فاعلية واضحة له من الناحية العلمية والعملية. إذ لم يشر الى ظهور دراسات إجتماعية وإنسانية لآسيا وشمال أفريقيا كثيرة بالموازنة مع نوع وكمية الدراسات والأنجازات التي أحاط بها المستشرقون التي قدّموها عبر مائة سنة أو أكثر وتتناول مناحي كثيرة من الإسلام والحضارة الإسلامية، فضلاً عن تحقيق المخطوطات الإسلامية الأصيلة والقيمة. وهنا يتبادر إلى الذهن إشارة نسبت أيضاً إلى البروفسور لويس في أثناء مناقشته آراء البروفسور سعيد حول مصطلح (الإستشراق) قوله:- بأن المصطلح بعد مؤتمر عام ١٩٧٣ قد ألقي به ((على كومة قمامة التاريخ))[١]، فان صحّ ما نقل عنه فلماذا؟ فهل يعتقد البروفسور لويس بأن التعبير نظرياً وعملياً، مضموناً وأهدافاً قد شيّع إلى مثواه الأخير فعلاً؟ ولا بد من الإشارة الى أن لويس بعد انتقاله من العمل في جامعة لندن إلى الولايات المتحدة لم يعد مهتماً بشكل كبير بالمحاور التاريخية نفسها التي أسّست عليها فلسفته في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. وأنه أخذ يخطو خطوات سريعة في ملاحقة القضايا التي تهمّ فلسفة الولايات المتحدة الأمريكية السياسية في صراعها مع المشهد الذي أعقب انهيار الإتحاد السوفيتي، وكأنه قد هيأ جهوده العلمية أو تهيأت له عناصر التشجيع للنزال مع العدو الجديد في حلبة الصراع ألا وهو الإسلام. فأسهم ـ بما يتمتع به من خبرات علمية عميقة في حقول الإسلام الوسيطة ـ في دراسات وبحوث ألّفها عن الإسلام المعاصر وهو يواجه المسيحية الغربية واليهودية وجهاً لوجه. إذن هل يمكن القول عن مؤتمر ١٩٧٣ بأنه أراد استبدال مصطلح أو تعبير الإستشراق بمعنى التوقف عن استعماله؛ ويقصد منه إعلان انتهاء مرحلة الإستشراق التقليدي ذلك المعروف بالإستشراق والسيرة النبوية الشريفة أو الإستشراق والدراسات الإسلامية الوسيطة والحضارة الإسلامية أي جميع المحاور

---

(١) ينظر (خصائص النصّ) ص ١١٨.

التي لم يترك المستشرقون القدامى أي محوّر دون متابعة ودراسة وتحقيق وتفسير تمشياً مع الزوايا العلمية تلك التي اهتمت بها المدارس الإستشراقية الأوربية والأمريكية والأسرائيلية وحبّذت إخضاعها للدراسة أو التي مالت إليها وتعتقد بضرورة الإعلان عنها إذ لم يبق من مزيد بعد مضيّ مائة عام على عناء البحث وملاحقة النصوص والمرويات.

والملاحظ على دراسات المستشرقين خلال الربع الأخير من القرن العشرين والعقود الأولى من القرن الواحد والعشرين فهي لم تعدّ معنيّة بشكل كبير بالأجزاء الساخنة من التراث الإسلامي وبالقدر الذي كانت هذه الميادين أكثر إثارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأكثرية القرن العشرين، بالأحرى فإنها ولاسيما اليهودية والإسرائيلية إستمرت في منهجها في الحفر التاريخي لدعم المتشابهات بين التاريخ العربي والتاريخ العربي الإسلامي وكذلك في إبراز أثر التوراة وتأثير قصص الأنبياء على التدوين التاريخي الإسلامي. ومن البديهي أن هناك استثناءات لما تضمّنه هذا الإستنتاج، إذ نرى ظهور بحث أو دراسة بين الحين والآخر له صلة بالميادين التي عنيّ بها المستشرقون سابقاً؛ غير أنها أعمال فردية أو متباعدة في زمانها. والأكثر مباشرة القول عن عدم وصف هذه الأعمال بمدرسة استشراقية أو بدائرة استشراقية أو بجمعية استشراقية يجتمع المنتمون إليها على أهداف ومحاور ومجالات بحث معينة في دراسة التراث الإسلامي الوسيط. هذه نقطة جديرة بالملاحظة لوضعها إلى جانب النقاط الأخرى الداعمة لرأي الأستاذ برنارد لويس في توقّف استعمال الإستشراق والمستشرقين لانتهاء مرحلته.

٥- إن استطرادنا حول عملية إثارة علامات الاستفهام السابقة وفي جدلية الحوار حول ما تم طرحه في مؤتمر المستشرقين بخصوص قرارهم الحاسم الذي توصّلوا إليه يجابه تعثرات قليلة ولا سيما المسألة التي سنطرحها الآن من حالات بمثابة تناقضات مع تلك الفكرة.فالعقود التي أعقبت عام ١٩٧٣ حتى نهاية القرن العشرين وكذلك خلال ما انصرم من القرن الواحد والعشرين شهدت نهضة متميّزة في دراسات العلماء الأوربيين والأمريكان والإسرائيليين والروس وعلماء من الدول التي انسلخت عن الإتحاد السوفيتي بعد انهياره وتفتّت وحدته. إلا أن هذه النهضة العلمية في إجراء بحوث ودراسات وتحقيقات في ميدان لا علاقة له بالميادين السابقة التقليدية في دراسات المستشرقين الأوائل (وأقصد مستشرقو القرن الثامن عشر والتاسع عشر).

والإشارة هنا إلى دراسة الدين الإسلامي ومبادئه والسيرة النبوية وحياة رسول الله وشمائله وأخلاقه وغير ذلك من موضوعات قد أتينا على ذكرها قبل صفحات. إنما هي دراسات تتعلق بشكل خاص بالإسلام المعاصر في شتى حقول المعرفة الإنسانية. ولعل الأصح القول بأنها دراسات تركّزت في مساحات جغرافية محددة تطوّرت الأحداث فيها تطوّراً سريعاً وساخناً نظير إيران بالدرجة الأساس ثم العراق ولبنان. فقد احتلّت إيران المكانة البارزة في توجهات واهتمامات العلماء الغربيين والمستشرقين منهم خاصة بدت جليّة إثر التحولات الدينية والإجتماعية التي أخذ لهيبها يستعر في العالم في السنوات الأخيرة من حكم شاه إيران، وذلك بتحرك الصحوة الإسلامية تحرّكاً سريعاً بشكل ملفت؛ وعلى المستوى نفسه تأجّجت روح المعارضة الدينية والثورة في العراق إبان نهضة الشهيد الصدر الأول، وفي لبنان بظهور عنوان التشيع الإسلامي الإمامي إبان زعامة موسى الصدر. لذلك يمكن القول بأن الصحوة الإسلامية عمّت المنطقة الإسلامية والعالم. ففي إيران وجّه الثوّار ضربة قاصمة ونهائية في إسقاط أحد الأنظمة الإستعمارية الذليلة المرتبطة بالسياسة الأمريكية بسقوط الشاه. فقد أربكت حالات التذمر الواسع الإنتشار في إيران نظام الشاه فلم يعد يعلم كيف الإفلات من ثورة الملالي حتى وصل الى نهايته. فما طبيعة هذا الإسلام الشيعي الإمامي الإثني عشري؟ وما توجهاته الدينية والعقائدية والسياسية؟ ولهذا السبب فقد تحرّك الغرب وأمريكا ـ تحرّكاً سريعاً أيضا ـ يذكّرنا بالتحرّك الكنسي عند انتكاسة الإمبراطورية البيزنطية بفعل انتصارات الإسلام الحنيف ـ تحرّكاً سريعاً.

هنا ولنكن أكثر مباشرة في هذا الإستطراد الذي يغلب عليه العاطفة السياسية، لقد اختارت أمريكا سياسة تشجيع علماء الغرب وأمريكا وإسرائيل ممن يحسنون معرفة التاريخ الإسلامي وتاريخ الفرق الإسلامية إلى تقديم ما لديهم من خبرات علمية ودراسات مباشرة عن إيران وعن الإسلام الشيعي وعن التشيع الإمامي الإثني عشري وعن الأوضاع الدينية والأثنية في إيران، وحثّهم على التّعرف على جميع المعلومات التي تخصّ التشيع الإمامي وغيره والتعريف بفرق الغلاة وبالأوضاع الدينية الأخرى. فانطلق العلماء الأوربيون في تقليب صفحات ماضي التاريخ الإسلامي والعودة ثانية إلى المؤلفات الإسلامية العتيقة والى دراسات المستشرقين القدامى بحثاً ودراسة وتحقيقاً وتحليلاً. وتسارعت الجمعيات التبشيرية إلى تحفيز العلماء لدراسة التشيع

ومتابعة سير الأئمة من أهل البيت ودراسة الإمامية الإثني عشرية[1]. والمدهش حقاً القول بأن نشاطات المستشرقين وفعالياتهم في هذا المجال قد فاقت الدراسات التي نهد بكتابتها المستشرقون القدامى من حيث النوع والكمية. ففي سنة ١٩٦٨ إنعقد أول مؤتمر متخصّص بهذا الجانب بعنوان التشيع الإمامي Le Shiisme Imamite في مدينة ستراسبورغ وقد حضره جميع المستشرقين الذين لهم عناية واهتمام بالتشيع الإمامي من العلماء الغربيين، فضلاً عن حضور اثنين من علماء الشيعة البارزين.وبعد ذلك توالت حركة إنعقاد المؤتمرات والندوات والسيمنارات بشأن الموضوع نفسه، ورافقت هذه الفعاليات نشاطات في التحقيق ونشر ودراسة البحوث والمؤلفات الشيعية ودراسات أخرى عن الفرق الإسلامية والفرق التي خرجت غالية عن المذهب الشيعي الإمامي حتى الوقت الراهن.ونلحظ أن هذه الدراسات قد استندت الى المؤلفات الشيعية من كتب الأصول الأربعة إلى مؤلفات الرجال والمؤلفات التاريخية والتراجمية دون الرجوع إلى المؤلفات السنية التقليدية.فحسب رأي المستشرقين الجدد أن الكتابة عن الإسلام الشيعي ينبغي عليها الاعتماد حصراً على المؤلفات الشيعية نفسها؛ لأنها المعين الصحيح في الكتابة عن المذهب الشيعي.وقد استوعب الباحث ـ بعون من الله تعالى وبتعضيد من أئمة أهل بيت النبوة ـ ما توافّر له من هذه الدراسات والنشاطات في كتابه الموسوم بـ (التشيع والإستشراق) فمراجعته وقراءته سوف تدعم الأفكار المذكورة آنفا وتسلّط الأضواء على اهتمامات العلماء الأوربيين والأمريكان بالإسلام الشيعي في إيران والعراق ولبنان وغيرها من البلدان التي اتضحت فيها الصحوة الإسلامية الشيعية.

فهذا المحور كما نرى يناقض الفرضية التي استطردنا في الحديث عنها تلك المتعلقة بنهاية فاعلية مصطلح الإستشراق والمستشرقين. والملفت للنظر أن البروفسور برنارد لويس الذي يعدّ من المستشرقين المخضرمين ـ إذ عاصر مرحلة الإستشراق القديم والمعاصر ـ وهو ربما يعدّ آخر من بقي حياً من المستشرقين المتضلعين بحسب المفهوم الذي وقفنا عليه آنفاً بشأن الإستشراق، لم يستطع أن ينأى هو الآخر جانبا في الجدل الدائر حول الكتابة عن الإسلام الشيعي من الزاوية السياسية الميّالة إلى السياسة الأمريكية والديانة المسيحية الغربية؛ وهي النظرية التي صارت تعرف بصراع الحضارات في وقوفها إلى جانب الديانة اليهودية في هذا الصراع ضد الديانة

(1) M.Cookand P. Shayhyown: Hagarism (1998).

الإسلامية.والحقيقة أن البروفسور لويس يتميّز من غيره من المستشرقين بامتلاكه خبرة علمية طويلة وواسعة في حقل الدراسات الإسلامية وحقل الفرق الإسلامية. فقد ابتدأ حياته العلمية بالتخصّص في حقل الاسماعيلية وهي الفرقة التي انشقّت عن الإمامية الإثني عشرية، وكتابه عن هذه الفرقة قد حقّق شهرة واسعة وهو ذائع الصيت عند المستشرقين والباحثين العرب المسلمين على حدٍّ سواء، فضلاً عن ذلك له إسهام ثرٌ آخر في ميدان الحشاشين والفاطميين. لكن دراساته المعاصرة ـ بعد استقراره في الولايات المتحدة ـ قد توجّهت وجهة سياسية لكي توافق الفلسفة السياسية الأمريكية في علاقتها بالإسلام بشكل خاصّ.

عود على بدء:

أعود فأشدّد على منطق التحديد الزماني لحركة نتائج مؤتمر عام ١٩٧٣وفاعليتها بخصوص الإستشراق وكأنه زمان يدلّ على الإنتقال من مرحلة سابقة بمفاهيمها ومبانيها الفكرية إلى مرحلة لاحقة قد تكون حلقة متصلة ومستمرة بالسابقة أوقد ينظر إليها بأنها حلقة منفصلة عنها ومخالفة لها في المفاهيم والمباني والتطورات والأهم في الأهداف شأنها شأن أي حال أو مرحلة نصفها بما قبل وما بعد أن وصفنا سنة ١٩٧٣ وكأنها حدث سياسي أو اقتصادي أو مرحلي، فهل يصح أو بالأحرى هل يجوز لنا تشخيص ذلك الزمن بتحديد ما قبله من تطورات ثم ما حدث بعد ذلك؟ لعله من الواضع في هذه الجدلية القول بأن العناصر التي شملتها مرحلة ما قبل ـ كما مرّ ذكره مراراً ـ هي بدايات تأسيس الحركة الإستشراقية التي استوعبت معنى المصطلح ومقصوده ومبانيه اللغوية والأدبية والمصدرية في تحقيق المخطوطات الإسلامية وفي تهيأة أدوات وآليات الكتابة الهادفة من جميع النواحي العقائدية والسياسية والحضارية المتعلقة بالدين الإسلامي وبشخصية رسول الله وبالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة والفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية وموقف الإسلام ديناً والدولة الإسلامية دنيوياً من أهل الكتاب من غير المسلمين يهود كانوا أم نصارى أم صابئة أم غيرهم من المجوس والثنوية وعبدة الأصنام والأوثان، أم تلك التي تتعامل مع المفاصل العقلية في الحضارة وفي العلوم الإسلامية. فقد كرّس المستشرقون جهودهم في المرحلة الأولى وحقّقوا إمكانات علمية وفكرية في الكتابة عنها ومتابعتها وإرساء التفسيرات والرؤى المؤيدة أو المعارضة أوالمعادية، السلبية منها في مواقفها من الدراسات الإسلامية أو

الإيجابية، المرتبطة بالسياسة منها أو بكونها من تطور مناهج البحث أو بالتبشير. عندها يصحّ تطبيق مفهومية الحركة الإستشراقية في مرحلة ما قبل مؤتمر المستشرقين عام ١٩٧٣. وواقعياً فمصداقية هذا الإستنتاج تبدو عملية وبادية للعيان للمتتبع لأعمال وإسهام المستشرقين السابقين كالحال التي شخّصتها دراسة الباحث الموسومة بـ(تطور الإستشراق في التراث العربي) المطبوع عام١٩٨٠. غير أن الصعوبة في متابعة تطوّرات ما بعد ذلك الحدث تعدّ ماثلة وحسب الصيغة التي يشير إليها عنوان الفصل. فما المقصود بمرحلة ما بعد الإستشراق؟ هل أنه يتعلق بأعمال المستشرقين أنفسهم بمعنى مواصلة دراساتهم وموازنتها علمياً وموضوعياً ومنهجياً مع الأعمال التي أنجزوها قبل ١٩٧٣؟ أو أن المقصود بها تشخيص الميادين الجديدة التي لم يقف عليها المستشرقون السابقون أو التي لم يسلّط عليها الضوء أو التي لم يفلحوا في عرض وتقديم تفسيرات أو آراء جديدة تختلف عن الآراء السابقة؟ أو تهدف إلى إبراز نشاطات مدارس إستشراقية بعينها أوأعمال مستشرقين ينتمون إلى بلدان غير البلدان الأوربية والأمريكية التي مارست هيمنة شرق أوسطية وشهدت عنفواناً في ذلك منذ بداية حركة الإستشراق.

الخلاصة:

إن الموضوع الذي استهل به هذا الفصل كان الحديث بشأن تاريخية التوقّف عن استعمال تعبير الإستشراق والمستشرقين وكيف واجه التحدي الجديد المتمثل بالصحوة الإسلامية وانتصار الإسلام كقوّة عظمى حلّت محلّ القوة السياسية الأعظم التي كانت تقف بوجه أمريكا وأقصد الإتحاد السوفيتي. والصحوة الإسلامية نفسها هي المعول الذي سيقف مواجهاً لسياسة القطب الواحد بعد إفشاله مخططات العولمة ومشروع خارطة الطريق والمشاريع الإستعمارية المماثلة لذلك. وعلى هذا الأساس سيبقى دور العلماء المتمرسين في دراسة التاريخ الإسلامي ممن تتلمذ على أيدي المستشرقين القدامى المتضلّعين يؤدّون دوراً في غاية الأهمية في الكتابة الشاملة عن هذا الجزء الحيوي من الإسلام، أي الإسلام الشيعي الذي عاش قروناً كثيرة في التاريخ مغيباً بفعل تعسف السلطات السياسية غير الشرعية التي تقلّدت مقاليد السطّوة والسياسة وفرضت قيوداً حديدية للحصار وصدّ تأثيرات هذا الإسلام الحقيقي، لأنه إسلام بيت نبوة سيد الأنام وأهل بيته. لهذا فإن رحيل المستشرق الألماني المشهور

شتروسمان Strothmann المتخصّص بميدان التشيع الإثني عشري ومؤلف كتاب (الشيعة الإثني عشرية Die Zwolfer Schia) المطبوع في لايبزك سنة ١٩٢٦ لم يؤد إلى انقطاع سلسلة الإستشراق الألماني في هذا الميدان المتمثل بشتروسمان وثيودور نولدكه Th.Noldeke مؤلف البحث القيم حول بداية التشيع Zur Ausbreitung der Schiitisnus المنشور في مجلة (الإسلام Der Islam عام ١٩٢٣) لكنها ـ وأقصد السلسلة ـ استمرت حيّة في الجيل الذي أعقبهما عند من تتلمذ عليهما مثل المستشرق هالم هاينز Halm Heinz وولفريد مادولنك Wilfred Madelung وفيرينا كلم V.Klemm الذين تميزوا بالكتابة عن التشيع وأئمة أهل البيت والأمام المهدي والسفراء الأربعة. كذلك فإن وفاة المستشرق اليهودي الهنغاري المعروف جولد تسيهر I.Goldzhier لم يؤدِ الى نهاية الحركة الإستشراقية حول الإسلام الشيعي فقد ورث أفكاره وتفسيراته نخبة من المستشرقين اليهود الصهاينة أمثال جوزيف الياش J.Eliash وأيتان كوهلبرغ E.Kohlberg اللذين تخصصا في الكتابة عن الإمام علي بن أبي طالب وعن التشيع الإمامي الإثني عشري وعن أئمة أهل البيت. كذلك فإن رحيل المستشرق الفرنسي الذائع الصيت لويس ماسنيون L. Massignion لم يؤدِ إلى إغلاق الباب أمام الإستشراق الفرنسي واهتماماته في هذا الميدان إذ ورث أفكاره ومدرسته غيره من المستشرقين الفرنسيين نظير تلميذه المستشرق المعروف هنري كوربان H.Corbin المتخصّص بالفكر الإمامي والفكر الاسماعيلي.

والملاحظ أيضاً أننا الى الآن نعرّف هؤلاء العلماء من الجيل الثاني والثالث بالمستشرقين سواء كانوا من ألمانيا أو من فرنسا أو من إسرائيل وهكذا. وقبالة هذا النقيض في الجدل بشأن الإستشراق، المصطلح والمضمون والفاعلية، ولاسيما في الدراسات المتعلقة بالإسلام وبسيرة رسول الله وبالفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية يحقّالقول مستندين إلى موازنة إحصائية عامة بين حجم ما سبق إنجازه قبل سنة ١٩٧٣ وما تحقّق بعدها بأن هذه الدراسات قد شهدت تضاؤلاً جلياً في العدد والقيمة العلمية، وقد أشرنا إلى تلك الحال في فصل سابق من الكتاب ذلك المتعلق بإسهامات المستشرقين القدامى والمحدثين في ميدان السيرة النبوية، ولاسيما في دراسات المستشقين الأوربيين. وذلك لأننا سنقف في فصل لاحق من الباب الأخير لهذه الدراسة على فيض غزير من الكتب المؤلفة من الباحثين الأمريكان على وجه الخصوص عن ميدان السيرة النبوية يغلب على الكثير منها الإتجاه التبشيري المعلن

بوضوح في عنواناتها.وتوكيداً على مدى فاعلية الدراسات قبل الزمن المذكور آنفا فإن كتاباً مثل كتاب الهاجرية Hagarism[1] من تأليف المتسشرق اليهودي مايكل كوك M.Cook المطبوع بعد سنة ١٩٧٣، ودراساته الكثيرة حول موضوعات فكرية عن الإسلام. وكذلك كتاب المستشرق الهندي البريطاني المسلم بالتسمية سليمان رشدي الموسوم بـ (آيات شيطانية Satanic Verses) والبروفسور جيسي أف روبنسون C.F.Robinson صاحب المؤلفات الكثيرة بشأن التوين التاريخي الإسلامي وعن النبوة والرجال المقدسين في الإسلام المبكر وعن بعض المؤرخين المسلمين؛ والبروفسور كونراد L.I.Conrad في دراساته الكثيرة حول التدوين التاريخي الإسلامي وعن أبرهة ومحمد وغيرها. فعلى الرغم من إثارة عنواناتهما في التفسير والرؤية والعنوان لم يحققا اهتماما مركزياً في الغرب، ناهيك عن تجاهلهما أو عدم الإكتراث بآراء مؤلفيهما في الشرق العربي والإسلامي. ولولا أن يكون الكتاب الثاني أنموذجاً صريحاً لحال الإرتداد عن الدين الإسلامي الحنيف، وحسب التطبيقات الشرعية فالحكم على المرتّد هو بالقتل لما أحرز من سعة انتشار و اصداء في دعوة الخميني الى إهدار دمه بسبب ارتداد مؤلفه عن الإسلام. فمن البديهي أن يصبح عنوان كتاب رشدي ذائعاً ومشهوراً. ولكن بصورة أدق فإن الكتابين لم يثيرا اهتماما وعناية بين صفوف المثقفين العرب والمسلمين. وهو أمر قد يرجع إلى عدم شيوعهما ومعرفتهما أوالى عدم التعرّف أو عدم اطلاع هؤلاء المثقفين على محتوى هذين الكتابين و قد يرجع السبب إلى أن المثقف العربي عامة والعراقي خاصة قد تعوّد ـ عبر قرن من الزمان تقريباً ـ على تفسيرات أكثر تطرّفاً أدلى بها المستشرقون الأوربيون بخصوص سيرة رسول الله أو بخصوص الإسلام ديناً والقرآن الكريم كتاباً. لهذا كلّه فقد تفاوتت ردود الفعل إزاء الكتابين بين السلبية المطلقة والمعلنة وبين الإيجابية المتمثلة بالسكوت وعدم الردّ أو عدم اتخاذ موقف صريح وهو أضعف الإيمان.

المثقفون العرب وثقافة الإستشراق:-

فالتناقض الذي خطّه الفاصل بين الفكرتين السابقتين:-

إن توقف استخدام التعبير (الإستشراق والمستشرقون) واستبداله بتعبير آخر في

(١) الموسوي، د. محمد جاسم: مداخل المثقفين العرب للاستشراق، الثلاثينيات، الاستشراق، وزارة الثقافة والإعلام مجلد ٥ سنة ١٩٩١ ص ١.

مؤتمر ١٩٧٣ وبين انسيابية استخدامه بعد ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ولكن في ميدان آخر من الدراسات الإسلامية ـ الإسلام الشيعي ـ له انجذاب وعلاقة بعنوان الفصل. إذ بالإمكان عد هذا التحوّل في دراسات المستشرقين في مدة ما بعد ١٩٧٣ نقطة هامة في تمييز الحركة الإستشراقية وإسهاماتها في مرحلة ما بعد الإستشراق؛ وهو تحوّل جوهري إستند إلى جذور قديمة للجهود التي بذلها المستشرقون عبر ثلاثة قرون على الأقل من ملاحقة ومتابعة للنصوص من هذا التحول نتوجه إلى تسمية نتائج وتوضيح أبعادها المستقبلية.

١- ففيما يتعلق بالمؤسسات والمعاهد العلمية المتخصّصة بالدراسات الإستشراقية في الإتحاد السوفيتي أو في الدول الإسلامية التي خرجت عنه بعد تفتيته فقد استمرت تحمل العنوان (الإستشراق) نظير معهد الإستشراق في لينتغراد وموسكو ودول إشتراكية وإسلامية أخرى.

٢- إن أصداء إسهامات المستشرنين قد وجدت بل أخضعت للجدل والمناقشة بين المثقفين المصريين والعراقيين والسوريين منذ العقد الأول من القرن العشرين، وخلال عملية الجدل هذه إتضحت الحدود الفاصلة بين من هو مستشرق وبين من هو مبشر بديانته والمتعصب ضد الإسلام. لكننا في حقبة أواخر السبعينيات، وأكثر وضوحاً خلال ثمانينيات القرن العشرين فصاعداً نشهد تصاعداً في اهتمام الساحة الفكرية العربية والإسلامية بدراسات المستشرقين والتعرّض لها ونقدها والكتابة عنها. وتزايدت نسبة الاعتماد على تفسيرات المستشرقين وآرائهم إن كان هذا الموقف منهم سلبياً أو إيجابياً. وصرنا نلحظ ظهور عنوانات للكتب ودراسات ألّفها المستشرقون تدخل ضمن قوائم مصادر المؤلفات التاريخية الإسلامية والحديثة والمعاصرة للباحثين العرب والمسلمين، ولاسيما الدراسات المترجمة إلى اللغات الشرقية العربية والفارسية والتركية والأردية وغيرها، ولأهمية هذا الموضوع سنقف عليه لاحقاً بشيء من التفصيل.

٣- ومما له علاقة بالنقطة المذكورة آنفا يمكن إجراء توزيع جغرافي أولّي عن ردود الفعل العربية والإسلامية إزاء دراسات المستشرقين في المدة قبل ١٩٧٣ بهدف إبراز حقيقة أن هذه الردود العلمية إنما تكوّرت وتعدّدت ـ ثم بعدها في حوالي التسعينيات من القرن العشرين ـ وتصاعدت وتنوّعت مناهجها وأساليبها على شكل دراسات

وبحوث ومؤلفات ومؤتمرات واجتماعات وندوات فكرية ومحاضرات وغير ذلك.

وكانت الساحة الفكرية في البلدان التي تأسّست فيها مجامع علمية ولغوية الأكثر نشاطاً في مجال الجدل والمحاجة بين المثقفين المؤيدين لنشاطات المستشرقين وأولئك الذين وقفوا معارضين ومنتقدين. وهناك فئة أخرى وقفت موقف العرض والتعريف بهذا المستشرق أو ذاك. مع الأخذ بنظر الإعتبار المفارقات التي ظهرت بين تلك المواقف نظير:

أ. جدلية التأليف والاختلاف ـ كما عبّر عنها الدكتور محمد جاسم الموسوي في كتاب (الإستشراق)[1] الذي كان يضمّ بحوثاً لعدد غير قليل من الأساتذة أو يعرض أنموذجاً متمثلاً برأي المرحوم الأستاذ محمد كرد علي فقد مثّل في حقبة بداية معرفته وعلاقته بالحركة الإستشراقية موقفاً إيجابياً في بحوث له عن الإستشراق والمستشرقين. كالذي يظهر في بحثه الموسوم بـ (أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية)[2]. وهو كما يرى القارىء المتخصّص يجمع بين مفارقة لعلها كانت شائعة آنذاك في مصر وهي الخلط بين التعبيرين (المستشرق والمستعرب) فليس من الصحيح دائماً المعادلة بين التسميتين، كالذي وقفنا عليه مفصلاً في الفصلين الأول والثاني من الكتاب. أما المفارقة الأخرى فهو اصطلاح المرحوم الذي استعمله بشأن المستشرقين، علماء المشرقيات، وهو توصيف قد يبتعد قليلاً أو كثيراً عن تسمية المستشرقين. ومفارقة أخيرة تضمّنها عنوان البحث المذكور وهي تخصيص المرحوم الميدان (بالحضارة العربية) مع العلم أن دراسات المستشرقين التي جوبهت بالنقد والجدل والرفض كانت تاريخية إسلامية. ثم أن البحث خصّ الحضارة بالعربية وهو تخصيص صار الآن موضوع جدل بين المثقفين المصريين ربما بدافع قومي. والأكثر مباشرة التسمية التي أطلقها المستشرقون أنفسهم بوصفها الحضارة العربية الإسلامية.

ومهما كان الحال فالمرحوم علي قد أثنى في بحثه المذكور آنفا على أعمال المستشرقين مادحاً الإنجازات التي حقّقها نفر منهم أمثال: سلفستر دي ساسي وفان فلوتن وغولد تسيهر ((ومن تبعهم ومشى على أثرهم ممن طبعوا الأمّهات أو طبعت

(١) منشور في مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٧ جزء ١٩٤٧ ص ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) م.ن.

تحت نظرهم... فهؤلاء الرجال أعلّوا مقام المشرقيات في العرب))[1]. - وهذا نصّ حرفي لما أورده المرحوم علي - دون أن يميز بين آثار أولئك الذين رشّحهم وأفرد لهم هذا الثناء والمدح. فالواقع أن هؤلاء كانوا ينتمون إلى مدارس إستشراقية مختلفة، وكذلك يمثلون حقبا تاريخية متباعدة نسبياً بين مؤسس مركز أو معهد الدراسات الشرقية (دي ساسي) وبين مؤسس الدراسات النقدية والشكّية اليهودي غولد تسيهر، وبين مستشرق هولندي ذاع اسمه وعمله حول الإسرائيليات وكذلك عن أهل الذمة في الإسلام؛ لكن المرحوم محمد كرد علي حينما أدرك نبض المثقف المصري حيال المستشرق وحيال بحوثه سرعان ما تراجع عن موقفه الصريح والمادح. ولاسيما عندما وقف الأستاذ محمد روحي فيصل معارضاً وناقداً لاذعاً لبحث المرحوم علي في بحثه الموسم بـ (إلى الأستاذ محمد كرد علي: أغراض المستشرق). فعندها أبدى علي رأياً مخالفاً لرأيه السابق بشأن المستشرقين في بحث عنوانه (أغراض ودوافع المستشرقين) إذ قال ما نصّه: ((إن كثيراً منهم يعملون لسياسة بلادهم أولاً، وبينهم دعاة دين متعصبين يتخّذون الإستشراق سلّماً لخدمة دينهم))[2]. ومما يلاحظ أنه عندما بدّل موقفه صحّح ما سبق من تصحيحات فبدلاً من تسميته (المشرقيات) تحوّل العنوان إلى (الإستشراق) وبدلاً من (علماء المشرقيات) تغيّر إلى المعادلة التي ابتدأ بها وظلت حيّة حتى هذا التاريخ في عقلية المثقف العربي عامة وهي المعادلة:- الإستشراق يعادل السياسة والمخابرات الأجنبية، وكذلك الإستشراق يعادل التبشير، والتبشير يعادل التعصّب الديني.

فالمخطط الذي سنبينه لاحقا يشير الى المواقف العربية والإسلامية من المستشرقين، وهو أيضاً يشير إلى ردود فعل العلماء في الشرق الأوسط لمدة ما بعد نهاية الإستشراق إن صحّ التعبير:

اولاً: في الثلاثينيات من القرن العشرين حتى الخمسينيات منه تقريبا بمعنى المدة

---

(١) حقّق هلموت رتر كتاب (فرق الشيعة) للنوبختي طبع في أسطنبول ١٩٣١، وحقّق كتاب (مقالات الإسلاميين) لأبي الحسن الأشعري وطبعه في أسطنبول ١٩٢٩، وحقق كتاب (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني.

(٢) ناجي، د. عبد الجبار: السيد هبة الدين الشهرستاني الحسيني في الدراسات الاستشراقية، بحث مقدّم إلى المؤتمر في ذكرى وفاة الشهرستاني (آذار ٢٠١٠) تحت الطبع.

قبل ١٩٧٣ فقد انحصرت ردود الفعل في الآتي:

أ ـ التعرّف على المستشرقين والتعريف بأعمالهم وإنجازاتهم والتعريف بجنسياتهم وولاءاتهم وكذلك بعلاقة بعض المثقفين العرب والمسلمين ببعض المستشرقين. وهنا يخطر على البال وجود عدد من المستشرقين الفرنسيين والطليان والإنجليز في المجامع اللغوية العربية في القاهرة ودمشق وبغداد كأعضاء مساهمين وفاعلين. كذلك الأمر الذي استشهدنا به سابقاً من وجود علاقة وديّة مثلا بين العلّامة هبة الدين الشهرستاني الحسيني أحد مؤسسي الإصلاح في النجف وكربلاء والمستشرق الألماني هلموت رتر H.Ritter صاحب التحقيقات(١) والمؤلفات الممتازة حول التراث الإسلامي. وعلاقة السيد الشهرستاني أيضاً بالمستشرق البريطاني المعروف أدوارد براون E.Browne(٢) الذي ذاع صيته في كتابه عن الأدب الفارسي، وعن الثورة الدستورية في إيران. وعلاقة المستشرق الفرنسي المشهور ماسنيون L.Massignon بالعلّامة المرحوم مصطفى جواد، وعلاقة العلّامة المرحوم الدكتور جواد علي بالمستشرق الألماني شتروسمان Srtothmann، والعلاقة الودية بين العلّامة المرحم طه حسين بالمستشرق الإيطالي المعروف نللينو Nillino صاحب كتاب (علم الفلك عند العرب) وغيرهم.

ب ـ كذلك ترتبط بالفقرة السابقة فكرة ظهور محاولات في الكتابة التعريفية والوصفية للمستشرقين والتميز بين المستشرق والمبشر. ويدعم هذه النقطة المؤلفات التي ظهرت بين مؤيدي المستشرقين ومعارضيهم في مصر وبلاد الشام والعراق.

ج ـ ثم تطوّرت ظروف التأليف في الشرق في الخمسينيات بظهور موقف معلن ومعارض للمستشرقين المبشرين وفضح وسائلهم في التبشير ونقد كتاباتهم الهادفة إلى الإساءة الى الإسلام، أو تلك التي يهدفون من ورائها التبشير بالمسيحية بين صفوف المسلمين. وبعدها أخذ هذا الموقف يتوسّع شيئاً فشيئاً بين صفوف المثقفين العرب ولا سيما في أعقاب سياسة بريطانيا في فلسطين وتآمرها لتأسيس وطن لليهود في

---

(١) سبق الإشارة إلى هذه المؤلفات في الفصلين الأول والثاني.

بارث، رودي: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه (ترجمة د. مصطفى ماهر، القاهرة ١٩٦٧).

(٢) م.ن. ص ١٠.

فلسطين. لذلك انبرى الموقف الداعي إلى ارتباط الإستشراق بالإستعمار قوياً وصريحاً. في المقابل تشدّد الموقف الداعي إلى فضح ارتباط الإستشراق بالتبشير ولاسيما عند اتساع الأدوار التي أدّاها المبشرون الذين كانوا يعرفون اللغة العربية واللغات الشرقية والتاريخ الإسلامي في الخليج والبلاد العربية الأخرى وإيران والهند وأفريقيا والصين وأندنوسيا وغيرها من البلدان.

د ـ ونلحظ أيضاً توسّعاً بيّناً في انتشار التفسيرات الإستشراقية في قضايا أخرى لا تتعلق بالقرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة فحسب، إنما انشغل علماء غربيون من غير المستشرقين وهم يدرسون ويؤلفون عن العرب والإسلام والدولة والحضارة الإسلامية وعن الحضارة والعرب أم الحضارة والإسلام نظير الآثار التي خلّفها كتاب آرنست رينان Renan الموسوم بـ (تاريخ اللغات السامية).

ثانياً: في المقابل اتسعت ردود فعل العرب والمسلمين ومواقفهم في الستينيات من القرن العشرين متمثلاً بالكتابات المدافعة عن الدين الإسلامي أو تلك الفاضحة لأغراض المستشرقين المسمومة ولآرائهم التعسفية المبغضة للدين الإسلامي ولسيرة رسول الله.

ثالثاً: هذه التطوّرات في الدراسات وفي ردود الفعل لا تعدم ظهور دراسات تعريفية ووصفية للمستشرقين الألمان أو للمستشرقين الإنجليز، وهي دراسات تكشف عن دور هؤلاء المستشرقين في دراسة التراث العربي الإسلامي. والراجح فعلاً أن عدداً من هذه الأعمال قد تمّ فعلاً بعد عام ١٩٧٣.

رابعاً: لقد كانت ردود الفعل إزاء المستشرقين ـ في النقاط المذكورة آنفا ـ محدودة ـ إلى حدٍّ ما ـ من جهة، وتعريفية ووصفية لنشاطات المستشرقين من المدارس الأجنبية المختلفة من جهة ثانية، فضلاً عن ظهور دراسات متفرقة في مدة الستينيات بشأن أغراض المستشرقين السلبية من الإسلام؛ فقد شهدت نهاية السبعينيات وطيلة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين ـ وخلال المدة التي أعقبت توقّف العمل باصطلاح (المستشرقين) بلحاظ البروفسور برنارد لويس ـ زيادة ملحوظة في الاهتمام في الميدان نفسه، ميدان الإستشراق والمستشرقين في عموم البلاد العربية والإسلامية، ولعلنا لا نغالي في توزيع هذه الاهتمامات إلى الفعاليات المعرفية الآتية:

١- هناك اتجاه نشيط في عقد الندوات والمؤتمرات عن الإستشراق والسيرة النبوية والإستشراق والدراسات القرآنية والإستشراق والإسلام والإستشراق والحضارة الإسلامية وتمثيلاً لهذا النشاط نشير إلى مؤتمر جامعة الكوفة والمؤتمرات المتسلسلة في حلقات في كل سنة في السعودية منذ عام ١٩٨٥ وندوة الجامعة الأردنية سنة ١٩٨٨ وندوة في الهند عام ١٩٨٢ وندوة علمية في جامعة البصرة وندوة علمية في سوريا وهكذا.

٢- هناك توجه مكثّف عند المثقفين والمفكرين في طرح موضوع الإستشراق على موائد المناقشة موضوعياً سواء كان ذلك بصيغة محاضرات أو حلقات دراسية أو دراسات. ويتضمّن هذا التوجه الدراسات التعريفية والوصفية لإسهامات المستشرقين نظير: (المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى مقاربتهم من حقيقة الإسلام) ودراسة (المستشرقون وطبقاتهم)[١].

والسمة الغالبة على عنوانات ومناهج بحث هذه الدراسات هي الإستشراق والإسلام والإستشراق والسيرة النبوية والإستشراق وأهدافه وآثاره والإستشراق بين الموضوعية والافتعالية والإستشراق: علم موضوعي ام سياسة مقنعة. ويأتي خلال هذا الحشد من الدراسات كتاب البروفسور أدوارد سعيد (الإستشراق) نتيجة من نتائج حرب تشرين.

٣- ونلاحظ أيضاً في مدة التسعينيات ظهور حشد واضح من التوجه في هذا الميدان وذلك عن طريق إدخال مادة الإستشراق ضمن الجداول الدراسية لطلبة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) ولاسيما في الجامعات العراقية. كذلك نلحظ تطوّرا سياسيا في بنائه كان العامل المؤجّج للنفوس في تصاعد الدراسات عن المستشرقين ألا وهو توتّر العلاقات العربية الأوربية والأمريكية.

٤- تميزت حقبة ما بعد الإستشراق ولاسيما عند المثقفين العرب والمسلمين بولادة تيار فكري تبنته نخبة من العلماء العرب الذين تثقفوا وتخرجوا في جامعات أجنبية ولاسيما الفرنسية والبريطانية. ويدعو أنصار هذا التيار المؤرخين العرب

---

(1) Watt, M.Mohammad: prophet and statesman (Oxford 1961) pp. 231-232, 235.

والمثقفين والمفكرين إلى ضرورة نبذ المنهج البحثي الإسلامي التقليدي سواء أكان ذلك في الموقف من المستشرقين ام في إعادة النظر في المفاصل الأساس من التاريخ الإسلامي ومن تاريخ السيرة النبوية الشريفة ومن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي. واللافت للنظر أن نخبة من هؤلاء العلماء قد أدلوا بآراء وتفسيرات أشدّ تطرفاً أحياناً وأكثر استشراقية من آراء المستشرقين أنفسهم.

ومما لا شك فيه أن الدعوة إلى ضرورة الأخذ أو بالأحرى الانتفاع من مناهج بحث المستشرقين المستندة إلى النقد والتحليل والمقارنة في الكتابة التاريخية العربية والإسلامية قد ابتدأ عرضها منذ العقد الأول من القرن العشرين بوساطة نخبة من أنصار التيار الفكري الإصلاحي في العراق ولاسيما النجف وكربلاء كما وقف على ذلك السيد الشهرستاني وغيره، وهو تيار يفضي إلى نبذ الأفكار التقليدية والبرامج القديمة في المدارس. كذلك الحال بالنسبة إلى مصر، إذ توضّحه آراء عدد من العلماء المصريين نظير ما تطرق إليه المرحوم طه حسين في مقدمته لكتاب أستاذه المستشرق الإيطالي نللينو المعروف بـ (علم الفلك عند العرب). أما الكتاب الذي تضمّن مقدمة المرحوم فهو (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية)، فقد أثنى فيها طه حسين على عمل المستشرق نللينو وحثّ على جدوى وأهمية مناهج المستشرقين في البحث والتحقيق و ضرورة التأثر بها والإقتداء بأسلوبها في الدراسات العربية.

والمهم هو الحقيقة التي ينبغي تذكّرها في هذا المجال إذ إننا قد أتينا عليها في فصول هذا الكتاب تلك المعنيّة بالدراسات الإستشراقية حول السيرة النبوية التي ترددت فيها دعوة العلماء المسلمين إلى ضرورة اتخاذ منهج بحثي جديد في عرض وتقديم تفسيراتهم المتعلقة بعصر السيرة النبوية وبشخصية رسول الله وشمائله. إنه منهج ـ بحسب وصف المستشرق البريطاني المشهور مونتغمري وات JWatt ـ يستند الى غربلّة المعلومات التاريخية الواردة في مؤلفات السيرة النبوية والمؤلفات التاريخية غربلّة شاملة وتصفيتها من الشوائب التي تشير إلى وجود عناصر المبالغة والأطناب في المديح، والى عزل المرويات التي يصعب تصديقها أو تلك الضعيفة في متنها وسندها وغير ذلك من توصيات ومقترحات منهجية. ولكن يبقى السؤال نفسه لماذا؟ فحسب قول المستشرق وات وبرنارد لويس فإن ذلك بغية الوصول إلى عرض تاريخي موضوعي ومقبول ومتفاعل مع العقلية الغربية. أو كما علّلته المستشرقة الألمانية رودي بارث في دراساتها القيّمة (الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية،

المستشرقون الألمان منذ ثيودور نولدكه)[١] في النصّ المترجم الى اللغة العربية من الدكتور مصطفى ماهر قولها:

((إن علم الإستشراق كما هو بين أيدينا اليوم نتيجة نشاط أجيال عديدة من العلماء. ونحن معشر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات العلوم العربية والإسلامية لا نقوم بها قطّ لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي بل على العكس نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثّله الإسلام ومظاهره المختلفة الذي عبّر عنه الأدب العربي ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي. ونحن في هذا نطبّق على الإسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربية وهو المعيار النقدي نفسه الذي نطبّقه على تاريخ الفكر عندنا.. إننا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة. أما الرأي المضاد فنحيط به علماً ونحن هادئوا البال))[٢]. والمناسب قوله رأي للمستشرق مونتغمري وات المماثل لما سبق ذكره، وإليه يرجع الفضل في إبداء الأسّس في إرساء مثل هذه الملاحظات وغيرها في كتابه (محمد في المدينة) تلك التي أعاد ذكرها في كتابه (محمد الرسول ورجل الدولة) المطبوع في لندن ـ نيويورك سنة ١٩٦١، إذ يقول ما ترجمته: يزعم المسلمون ـ على أية حال ـ بأن محمداً هو الأنموذج الأمثل في الأخلاق وحسن التصرّف مع البشرية جمعاء... ومع أن العالم أصبح على نحو متزايد عالم واحد فإن محمداً لم يثر إلا اهتماما ضئيلاً، حتى الوقت الراهن، بوصفه الأنموذج العالي في الأخلاق... وما زال الباب مفتوحاً أمام المسلمين اليوم ـ على أية حال ـ لكي يقدّموا إلى بقية العالم، عرضاً أكمل وأفضل لقضيتهم. فهل بإمكانهم غربلّة (أو نخل) العام من الخاص في حياة محمد. وبذلك يستطيعون الكشف عن المبادىء الأخلاقية التي تعدّ إسهاما خلّاقاً لما هو موجود في هذا العالم الآن؟ وعلى فرض أن هذا هو أكثر بكثير مما هومتوقع من الباحثين المسلمين، فهل بمقدورهم ـ على الأقل ـ البرهنة على أن حياة محمد وسيرته هي المثال الأنموذجي لكل البشرية؟ فإذا ما أعدّوا برهاناً جيداً فبعض المسيحيين

(1) Ibid., p. 235.

(٢) جعيط، د. هشام: في السيرة النبوية (١) الوحي والقرآن والنبوة (طبعة ثانية، بيروت ٢٠٠٠) ص ٣٥.

سيكونون مهيئين للإصغاء إليهم ومهيئين للتعلم منهم بما يمكن تعلمه))[1]. ويعلّق في مكان آخر من كتابه قائلا: بوجود عقبات وصعوبات كؤود تواجه الباحث المسلم في القيام بمثل هذا المشروع النقدي الصعب جداً ((والذي نحتاج ـ ويعني وات هنا الغرب ـ إليه توليفة أو مزيجاً من البحث العلمي القويم وإلى بصيرة حصيفة نافذة. فتوليفة مثل الذي نريده تعدّ نادرة وغير موجودة لدى الباحثين المسلمين)). إذن فوجهة نظره تنتهي إلى ((أنه من غير المحتمل ان يوّفق المسلمون في محاولتهم في التأثير على الرأي العالمي، وأنهم ـ في أحسن الأحوال ـ لم يوّفقوا في تقديم عرض علمي وموضوعي بخصوص مسألة أخلاق رسول الله))[2].

إنطلاقاً من هذه الأفكار والأقوال التي تلقي بأضواء تشاؤومية على المناهج التي يتّبعها الباحثون العرب والمسلمون في الكتابة عن تاريخ السيرة النبوية إنبرى نفر من العلماء العرب المعروفين إلى الأخذ بزمام المبادرة في تطبيق التوصيات والمقترحات التي أبداها المستشرقون بغية تطوير الكتابة التاريخية العربية. والغريب في الموضوع أن هؤلاء العلماء لم يتأثروا بمناهج المستشرقين فحسب بل تحمّسوا إلى الإدلاء بآراء وتفسيرات أشدّ نقداً وأعمق غربلّة وفي أحيان أنهم عملوا على تغييب التراث الإسلامي وإقصائه إلى حدّ أدّى بالبعض منهم الى إعلان حال القطيعة مع كل ما له علاقة بالتراث الإسلامي. ولتعمق هؤلاء العلماء في طرح تفسيراتهم العقلانية حتى وصلت بهم الحال إلى مرحلة المغالاة والتطرف في تطبيق معرفة الحداثة والحداثوية وما بعد الحداثة على التراث والتاريخ. ففي رأي هؤلاء كان التعلّق بالتراث الإسلامي وما زال السبب الرئيس في انتكاسة المجتمع العربي وفي تدهوره وفي تخلفه كالحال التي وظّف فيها المرحوم العالم محمد عابد الجابري أستاذ الفلسفة والفكر العقلاني والحداثوي في العالم العربي أطروحته حول التراث الإسلامي. والمثير أن آراءه قد نالت إعجاب جمهور كبير من المثقفين العرب ومن الشباب العربي. ويرجع سبب ذلك بالدرجة الأولى إلى ملل الشارع الثقافي وحتى الأكاديمي العربي من المناهج البحثية التقليدية والمجتّرة وإن شئت فقلّ المناهج السلفية التي تملى قسراً على العقلية العربية والإسلامية. وكذلك أحرز البروفسور محمد أركون جمهورا واسعا أيضاً بين أوساط

---

(١) م.ن. ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩.

المثقفين العرب والمسلمين لأطروحاته العلمانية العقلانية بما له علاقة بالتراث الإسلامي الفلسفي والكلامي والفقهي. وأحرز المفكر الإيراني ـ ذو الجذور الصوفية ـ عبد الكريم سروش مكانة علمية عالية لأفكاره العقلانية بشأن الإسلام والفكر الإسلامي. هؤلاء العلماء لا شك في أنهم تأثروا بالمناهج البحثية العقلانية التي ألحّ المستشرقون على اتباعها بهدف التجديد والتطوير. ويستحسن هنا المداخلة لبيان أن هدف ذلك هو التجديد والتطوير لا التدمير والإثارة بغية بناء مباني عقلية لا تخرج عن روح الإسلام وجوهره ولا تؤدي إلى نسفه من أساسه. وبهذه الرؤية نكون قد أسهمنا في تقديم منهج متميّز ومتحرّك بوساطة إخضاع الرواية المقدسة إلى النقد والتفكيك والتحليل بهدف تنقية ذلك المقدس دون هدمه وإفنائه بالمرة. وفي هذا الصدد نودّ الإشارة إلى تفسيرات عربية تعبّر عن نتائج أشدّ قسوة وانتقاداً وسلبية وأنها قد أقتحمت الساحة الفكرية العربية والإسلامية دونما موقف منتقد ومعارض نظير الذي عرضه العالم الدكتور هشام جعيط التونسي في كتبه ومنها كتابه الموسوم بـ (السيرة النبوية) فهو يتناول في الجزء الأول منه موضوعات بالغة الأهمية والقداسة كالوحي والقرآن والنبوة. ومن آرائه هذه يشير إلى الآتي: قصة الغار (والمقصود هنا غار حراء الذي اتفقت عليه المرويات التاريخية بكونه الموضع الذي كان رسول الله يتعبّد فيه)[١]. وكذلك قصة رؤية الملك (والأستاذ جعيط هنا يشير الى الملك جبرئيل عندما نزل على الرسول ـ ص ـ) وإن كانت غير مستحيلة ((فإني شخصياً أرفضها لأن لحظة التلاقي والتجلّي والوحي قد حصلت في سورتي النجم والتكوير))[٢]. لكن الأستاذ جعيط سكت عن الإشارة إلى أي من الآيات الكريمة المعنيّة بذلك التجلّي والوحي، وأحسب أنها الآيات بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۞ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[٣]. أما الآيات الكريمة الواردة في سورة التكوير

---

(١) م.ن. ص ٦٦.

(٢) ينظر مجلة عالم الإسلام The Moslem World سنة ١٩٣٢ التعريف من قبل رئاسة التحرير المبشر صموئيل زويمر.

Volume 3 (1913) Editor Rev S.M.Zwemer (Reprinted Kraus Reprint corporation New York 1966).

(٣) سورة النجم، آية ٧-١٤.

التي لم يشر إليها الدكتور جعيط فربما المقصود بها :- بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۞ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۞ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾(١). ورب سائل متطرف يذهب إلى الاستنتاج أن العلّامة جعيط يرفض الوحي رفضاً تاما، وهو استنتاج خاطىء وجاهل، فالأستاذ في إثارته هذه إنما يريد توجيه تساؤل ناقد إلى الرواية التاريخية التي هيمنت على أفكارنا ومناهجنا تلك التي وردت عبر سلسلة إسناد ابن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير وما أوحته من قصة متناقضة غير محبكة الرواية التي أخضعتها للتفكيك والتحليل في كتابي (نقد الرواية التاريخية، السيرة النبوية أنموذجاً). فالآيات الكريمة تلك واضحة كل الوضوح حول تلقّي النبي الوحي من السماء، وعندئذ فلا حاجة إلى رواية قصصية غير متماسكة. والقرآن الكريم فعلاً هو المصدر الأعلى والأساس والأوضح في الإشارة إلى التلقّي والوحي. ونحن علينا بالفعل إخضاع هذه المرويات التاريخية التي اكتسبت حقّ القداسة إلى النقد والتحليل، والتشديد فقط على ما جاءت به الآيات الكريمة آيات الوحي والتلقي الجليّة والبينة. أما إشارة الأستاذ جعيط الى أنه يرفض رؤية الملك جبرئيل فلا تتوافق ومنطوق آيات سورتي النجم والتكوير ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۞ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ وقوله عزّ من قائل في سورة التكوير: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ولهذا فإن رفض الأستاذ جعيط بحاجة إلى إعادة نظر على وفق منهجه العقلاني في نقد الرواية التاريخية.

لقد ذهب البروفسور جعيط بعيداً مرّة أخرى في معياره الشكّي للرواية التاريخية التي تشير إلى تحنّث رسول الله قبل البعثة النبوية، وأنه اعتاد على البحث عن العزلة كغيره من الحنفاء. فيعقّب على هذه الرواية بقوله: ((وهذا مشكوك فيه كثيراً ولم يقف عند هذا العرض المتقاطع مع المألوف من الروايات فيرى بأن صراع الملك (والبروفسور لم يسمّ جبرئيل ودأب على تسميته بالملك) مع محمد يشابه إلى حد كبير صراع يعقوب مع أيل أو الملك أيل أي اللقاء مع الماورائي))(٢). وهذا رأي واستنتاج بحاجة إلى محاججة ولاسيما عند التدقيق بمفهوم الماورائي بالمعنى الميتافيزيقي غير الحقيقي وغير الملموس، فضلاً عن توقفه عند الموازنة بين حادثتين طالما وقف عليها

---

(١) سورة التكوير، آية ١٩-٢٥.

(2) Margoliouth "On Islamic or Moslem Tradition" in The Moslem World (1912).

المستشرقون اليهود لإبراز التأثير التوراتي في الإسلام. لكن البروفسور جعيط يذهب إلى استنتاج أبعد مفاده عدم جديّة وواقعية الحدث. وله آراء أخرى منها تلك الواردة في فصل عنوانه (الله وجبريل والنبوة والجنون) تحتاج أيضاً إلى وقفة مناقشة بعد تحليل المرويات التاريخية المتناقضة في نسيجها الداخلي والمشكوك في سلسلة أسانيدها.

إذن فهذه الآراء والتفسيرات هي أكثر حدّة وصراحة من آراء المستشرقين القدامى لكنها وردت في عام ٢٠٠٠م بمعنى بعد مرور حوالي ثلاثين سنة على قرار المستشرقين التوقّف عن استعمال مصطلح الإستشراق. كل هذه الآراء قد وجدت ولكن دون ظهور ردود فعل في محاججة الآراء ودون أن يوجّه إليها نقداً أو رأياً مضاداً. ويكرّر البروفسور جعيط موقفه من قصة الغار بقوله: ((فإن قصة الغار ليست مختلقة فقط بل هي سخيفة لم تع شيئاً من الأمور))(١).

قبالة هذه المواقف العقلانية نختار أنموذج أو أكثر من مواقف المستشرقين القدامى الذين نعدّهم ـ نحن العرب والمسلمين ـ من المستشرقين المسيئين جداً للإسلام وللرسول الكريم وهو المستشرق الهنغاري اليهودي أغناص جولد تسيهر Ignaz Goldziher المولود عام ١٨٥٠ والمشهور بدراساته النقدية للمرويات الإسلامية والشريعة الدينية والمدنية وللشعر الجاهلي. ولعالميته فقد نال مدالية ذهبية كبيرة في مؤتمر الإستشراق الذي عقد في أستكهولم سنة ١٨٨٩(٢). فمن مواقفه الشكّية موقفه من الأحاديث النبوية الشريفة، إذ يعتقد بعدم صدقيتها وعدم موثوقيتها، ولعله ينكر الكثير منها لمجرد كونها أحاديث وردت عن النبي. وواقع الحال فأن علماء النقد والجرح والتعديل والحديث هم أيضاً صنّفوا الأحاديث المروية بحسب درجات قوتها وسلامة إسنادها فميّزوا بين الضعيف والأحادي وغير المقبول والمنكر من غيره من الأحاديث القوية في سندها ومضمونها، لكننا نقف من هذا المستشرق موقفاً سلبياً لطعوناته في الحديث الشريف ومدلولاته التاريخية أو الشرعية. مع أن البروفسور البرت حوراني يعدّ جولد تسيهر ممن أسهم في تظهير صورة الإسلام في الغرب، وهو بصراحة لم يعلن عن آرائه العقلانية كالحال التي صرّح بها عدد من العلماء العرب العلمانيين. وعلى سبيل المقارنة أيضاً بين تفسيرات المستشرقين ومواقفهم من الإسلام

---

(١) جعيط، د. هشام: أزمة الثقافة الإسلامية، طبعة أولى بيروت ٢٠٠٠ ص ١٧.

(٢) فنللي، بول (الحرب الصليبية الخامسة) الحكمة مجلد ٤٤/ ٢٠٠.

في مرحلة ما قبل ١٩٧٣ وما بعدها بهدف الكشف عن متغير مهم جداً قد أخذ بالنمو نمواً سريعاً في الساحة العربية الفكرية ـ التاريخية نستشهد بالمستشرق البريطاني مرغليوث Margoliouth وهو مستشرق مبشّر له مؤلفات وتحقيقات وإسهامات كثيرة. فقد نشر بحثاً في المجلة الواسعة الإنتشار والمعروفة بخطّها الفكري التبشيري (عالم الإسلام Moslem World) سنة ١٩١٢ (حول الحديث الإسلامي On Islamic or Moslem Tradition) إذ يصل إلى نتيجة مفادها أن الأحاديث النبوية قد دوّنت بعد حوالي قرن من وفاة رسول الله؛ لذلك فقد دخلها الكثير من التشويه والتزييف والكذب. وهو رأي لا يتقاطع تماما مع ما تم عرضه آنفا من موقف علماء الحديث والتراجم والطبقات والرجال والجرح والتعديل من دخول التزوير والتشويه في تدوين الحديث منذ بداية عملية تدوينه وبعد جمعه. ولكن المسألة بالنسبة إلى البروفسور هشام جعيط والبروفسور محمد أركون تأخذ منحى آخر، فهما يصرّحان بأن الحديث والفقه كانا يؤديان عملاً بغير ما نسّقه القرآن من عناصر تشريعية، وقد عمّمت ذلك الأداء وشدّد عليه. وقد ضرب الأستاذ جعيط مثلين على ذلك هما: التوسع الكبير جداً في مسألة تحريم القرآن للربا والإبتداع، إنطلاقاً من السنّة أي من حديث رجم المرأة الزانية. فيقول: إنه عقاب غير منصوص عليه أصلاً في النص القرآني، وهو كذلك مخالف لمقاصد القرآن لمن عرفها حق المعرفة. أما بخصوص التشدّد في الموقف من الربا فيقول: إن كتاب الموطأ لمالك يظهر بمظهر الكاريكاتور حينما يحرّم كل ما في الربا من عنصر المخاطرة إلى درجة أنه يؤدي بالنهاية إلى تعطيل التبادل التجاري.

في المقابل وتأكيداً لتأثر هذين العالمين بالمنهج النقدي والشكّي فإنهما شدّدا على وجوب نقل تجارب المناهج الغربية إلى المنهج التاريخي العربي وهو منهج الحداثة والحداثية، إذ يقول جعيط في كتابه الموسوم بـ(أزمة الثقافة الإسلامية): ((ولا يمكن أبداً للعرب والمسلمين أن يلجوا باب الحداثة والمشاركة في العلم المعاصر إلّا إذا كوّنوا لأنفسهم طموحاً عالياً في مجالات الفكر.. وإلّا إذا قرّروا جدّية الأخذ عن الغير وما أبدعته الحداثة))(١). وهذه النتائج تماهي ما كرّره البروفسور أركون في مؤلفاته. وهي من الجهة الأخرى الآراء نفسها التي سبقت الإشارة إليها عند المستشرقين مونتغمري وات وبرنارد لويس وغيرهما من جيل المستشرقين.

---

(1) See Watt, M, op.cit p. 231-32.

حقائق ورؤى مستقبلية:

إن المستشرقين الذين أدّوا أدواراً لا شك في أنها مهمة جداً في الدراسات العربية والإسلامية وفي تحقيق المخطوطات التراثية والعلمية، وفي متابعاتهم وشروحاتهم وتفسيراتهم الإيجابية منها والسلبية يمثّلون ـ في الواقع ـ الآخر بالنسبة الينا. لهذا نرى من الضروري دراسة أعمالهم وإنتاجاتهم بحسب المدارس الإستشراقية التي ينتمون إليها والتعرّف على هوياتهم وسيرهم العلمية وثقافاتهم لأنهم يظهرون واقع العقلية الغربية النخبة والمثقفة، ولكن لماذا؟ ذلك لنكون على معرفة وقرب من تصوراتهم ودوافعهم إزاء تأريخنا وديننا وتقاليدنا، وعلينا أيضاً الإنفتاح عليهم عبر قنوات كثيرة بهدف تذليل عقد الماضي التي ابتدأت وهي صغيرة الحجم، لكنها أخذت تكبر وتتضخم تأثيراتها منذ عصر الكنيسة والعصر الأوربي الوسيط فصاعدا. وكان من نتائجها المواقف المتشنجة والمتعصبة من الطرفين على حد سواء بسبب تنامي الروح العدائية التي استقبل بها الغرب المسيحي بزوغ الإسلام دينا جديدا في هذا العالم. فقد اعتقد الغرب المسيحي اعتقاداً قوياً وبحسب شهادة عدد من المستشرقين نظير مونتغمري وات وفرانشيسكو غبريلي بأن انتشار الإسلام واسترداده البلاد والأراضي التي ظلّت لعدّة قرون تحت السيادة البيزنطية والساسانية يمثّل حال إعلان الحرب ضد العالم المجاور وضد الغرب والمسيحية.وظل الغرب يتناسى بل يتجاهل مزيّة الإندفاع العسكري الإسلامي بوصفه ـ وفي فجر انطلاقه ـ اندفاعاً دفاعياً بالدرجة الأولى ورداً على أستفزازات القوى الكبرى آنذاك. تلك القوى التي لم تكن تتفّهم الأوضاع السياسية والدينية في الجزيرة العربية فأعلنت منذ اللحظة الأولى لميلاد الإسلام حال الطوارىء الجدّية وراحت تتآمر لعرقلة نجاحاته. مع العلم أن رسول الله بعد استقراره في مهد الإسلام الحقيقي ـ المدينة المنورة ـ شرع في تعريف العالم المجاور في مصر وبلاد فارس والجزيرة الفراتية وبلدان حوض البحر المتوسط واليمن وبلاد الخليج بأهداف الإسلام السامية وبنوايا الدولة الجديدة وبمشروعها الإنقلابي في الحياة والمجتمع والدين والأخلاق والعلاقة الطيبة مع الجوار وغير ذلك من المبادىء الرفيعة والسامية وأهمها أن الإسلام هو خاتم الأديان والنبي هو خاتم الأنبياء والرسل.

فهذه البدايات المتشنجة من الطرفين أخذت تتكّور وتكبر لارتباطها بالأوضاع السياسية والدينية والإجتماعية العامّة إلى أن وصلت إلى مرحلة بالغة الخطورة إذ صار الإستشراق يعني في فهمنا هو الإستعمار والتبشير، وأن المستشرقين هم أدوات في

السياسات العالمية الإستعمارية وهم في الواقع يهدفون إلى النيل من جميع وجودنا ومعتقداتنا. وأضحى الإسلام حسب مفهوميتهم هو الإرهاب والقتل والتدمير. والراجح قوله إن الحروب الصليبية قد مثّلت الخطّ الأحمر الخطير في العلاقات السياسية بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي على الرغم من متانة وقوة الروابط الإقتصادية والعلمية الإيجابية والمتطورة بينهما.وفي الوقت الذي رفعت فيه هذه الحروب شعار الصليبيين ـ الصليب ـ تعبيراً عن مسيرتها الدينية وهدفها الديني فقد تعامل المسلمون معها تعاملاً عسكرياً فحسب فلم يسبغوا عليها مسحة دينية أو صفة دينية مسيحية غربية، ولهذا فقد أطلق المؤلفون المسلمون عليها تسمية حروب الفرنج. والمعروف أن بلاد الفرنج لا تمثّل جميع الغرب جغرافياً وحسب المعتقد السائد آنذاك، فكان وصفاً من قبل المؤلفين المسلمين للبلاد التي انطلقت منها الجيوش الصليبية صوب الأراضي الإسلامية، وظّلت هذه البلاد مصدر إمداد عسكري مستديم ومصدر تغذية للحقد والكراهية. لذلك صمّم المسلمون على الردّ ضدّ الإتهامات الأمريكية ـ زمن الرئيس بوش الابن ـ للإسلام بوصفه الحرب التي شنها ضد أفغانستان والعراق حرباً صليبية خامسة، بمعنى أنه استعاد شؤم الذاكرة التاريخية الكنسية والوسيطة واستعاد مصدر عدوانيته فكان ردُّهم عنيفاً، واستعّرت ثانية روح المقاومة والإستبسال ضدّ الغرب بصورة عامة وأمريكا بصورة خاصة. ومع مرور الوقت أخذت السياسة الأمريكية العدوانية ضدّ الإسلام تتعرى، وفي الوقت نفسه فإن سياسة بوش الصليبية قد جلبت العار والحقد ضدّها وضدّ الدولة التي تحكمها. وهذا ما يطلعنا عليه الشارع العربي والإسلامي يومياً من خلال حالات الغضب والكره وازدراء سياسة أمريكا والدول الغربية الذليلة التابعة لها.

لقد أجّجت أقوال الرئيس الأمريكي وخطاباته بشأن الحرب الصليبية الخامسة ضدّ الإسلام مشاعر بغيضة وحاقدة حرّكها أولئك المتعصبون من القساوسة ورجال الدين وأنجّر وراءها الغوغاء والجهلة، وأسهم فيها سياسيون حانقون ضد الإسلام. واستعرت النيران المكبوتة في قلوب المتعصبين لتؤدي دوراً كنسياً جديداً فتارة يعبّرون عنه بصيغة رسوم كاريكاتورية وأخرى على هيأة كتابات.في الصحف الغربية الفرنسية والألمانية والدانمركية والبريطانية وثالثة على لسان رؤساء دول ووزراء وأعضاء في البرلمان ورابعة على لسان البابا بندكيت السادس عشر؛ إذ أعلن إعلاناً غير مسؤول في موقفه ضد الرسول الكريم وضد الإسلام مسوغا قوله ذلك باعتماده في آرائه تلك على

كلام الإمبراطور البيزنطي بمعنى أنه عبّر عن اللاشعور واللاوعي المنتمي للعصر الكنسي والأوربي الوسيط، وخامسة على صيغة أعمال عدائية بغيضة ضد كتاب الله القرآن الكريم وسادسة على صيغة عدوان سافر لأحد القساوسة في فلوريدا في أمريكا وهو القس تيري جونز بإعلانه عن عزمه حرق عدد من نسخ القرآن الكريم في ذكرى أحداث أيلول. مع العلم أن القس جونز والعالم الحر جميعاً يعلمون علم اليقين الدور الأمريكي وراء تلك الأحداث التي غذّت الشرعية لولادة الإرهاب وهو ابن صنعته أمريكا، وسابعة ما صار متردداً في العواصم الأوربية وفي الكنيسة المصرية من تجاوزات قبيحة ضد كتاب الله العزيز. لقد رافقت جميع هذه النتائج السيئة إعلان الرئيس الأمريكي بوش الذي صوّرته كنيسته الأسقفية البروتستانية أنكليكانيا ثم ميثوديا في كينبنكبورت في مدينة مين حيث غرس المبشر المشهور ووكر بونيت في أعماق بوش بإنه المعبّر عن شعب الله المختار[1] (الشعب المسيحي وليس الشعب اليهودي كما ألفناه) وأن جيشه إنما يهدف إلى تحرير الإنسانية في أفغانستان والعراق أي تحرير هذين البلدين المسلمين (اسماً فقط!) من الإسلام ومنح الفرصة ثانية لسيادة الغرب المسيحي في عالم الشرق. ومما يلاحظ في جميع هذه التصرفات الصبيانية من قبل المسؤولين والغوغاء على حدّ سواء أنها لم تأتِ أكلها فلم تفلح في كبح فورة الصحوة الإسلامية. وضدّاً لتلك التصرفات والأعمال حاز الإسلام على المرتبة الثانية كدين ثاني في أوربا، وتدفق عليه الناس معلنين إسلامهم وإيمانهم بالعقيدة الإسلامية. واقعاً فالمستشرقون والمهتمون بالدراسات الإسلامية لم ينخرطوا في مثل هذه التخرّصات والأعمال الجاهلة فلم يظهر بينهم من يدعم السياسة الأمريكية ضدّ الدين الإسلامي ما خلا القليل ممن حاول الإنتفاع من هذه الحملة، وهم حتى الآن ينتفعون منها، وهي حال لا تخلو منها أي بقعة في العالم حتى في عالمنا الإسلامي؛ إذ تكشف الوجوه المزيفة التي اعتادت على وضع لباس إسلامي فوق رأسها وتدّعي الإسلام ظاهراً وتدّعي ما يحلو لها من ادّعاء ومن زيف وباطل.

وخلاصة هذا الموضوع أن هناك حقائق ورؤى تمخّضت عنها هذه الدراسة لما بعد الإستشراق نتناولها بصيغة نقاط وفقرات على وفق الآتي :

---

(1) Gabreili, Franceco: Muhammad and the Islamic Conquest (Translated from Italian by Luling) London 1968, p. 20.

وترجم الباحث الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان (محمد والفتوحات الإسلامية).

١- لقد تعلّمنا من دراسة المستشرقين ونشاطاتهم في البحث والتحقيق عدم المغالاة في التشديد على عامل واحد أو تفسير أحادي لأهداف المستشرقين وأغراضهم وتوجهاتهم، وعلى ضرورة الأخذ بمجموعة من العوامل والتفسيرات. كذلك تفهّمنا ضرورة انفتاح الدراسات العربية والإسلامية على نفسها وعلى الآخر من دون أن تبقى منغلقة في محليّتها وماضويتها وأن لا تبقى أسيرة التحديد المعروف الذي أثر كثيراً على عرقلة مواقفنا واندفاعنا إزاء الإستشراق؛ وأقصد هاهنا إشكالية الإستشراق بوصفه علماً تأسّس ويراد من تأسيسه ضرب الإسلام أو ضّداً بالإسلام وبوصفه تبشيراً محضاً. ففيما يتعلق بالبند الأول، أي الإستشراق والإسلام، فالمعروف عن مستشرقين كثر أنهم قد اهتموا اهتمامات واسعة وغير محدودة أو محدّدة بموضوع واحد أو ميدان واحد دون غيره. فالعرض السابق في فصول الكتاب قد أبان أن بدايات أعمال المستشرقين لم تكن بالضرورة تدور في فلك السيرة النبوية الشريفة والقرآن الكريم فقط، فهناك دور ملحوظ ومتميّز في ميادين تحقيق الكثير من مخطوطات التراث الإسلامي النادرة ولأول مرّة، وهي تحقيقات اتّبعت مناهج علمية ممتازة. وكذلك فإنهم أسهموا في تعريفنا بتراثنا اللغوي والأدبي والعلمي والإجتماعي والحضاري مع أنه تراثنا وموجود بيننا وعندنا وقد أغفلنا شأنه فأخذه غيرنا واهتم به وحقّقه ونشره بأجمل شكل وأبهاه. وحقيقة لابد من ذكرها أنهم أخذوا زمام المبادرة من أيدي المثقفين والعلماء العرب والمسلمين في تأسيس كراسي اللغة العربية في باريس عام ١٥٣٩ وفي هولندا عام ١٦١٣ وفي كمبردج وأوكسفورد في ١٦٣٣. ومما لا شك فيه أن تأسيس كرسي لهذه اللغة يظهر اهتماما في مرحلة تأسيس الحركة الإستشراقية بالدراسات العربية في اللغة العربية واللغات الشرقية وآدابها. صحيح أنها خطوة يراد منها هدفاً تبشيرياً مثلاً ولكنها خطوة اعتمدت مناهج موضوعية في تحقيق المؤلفات اللغوية والأدبية ودواوين الشعر القديمة. فكان لمعاجم المستشرق أربانيوس وشايد ودوزي اللغوية العربية ـ اللاتينية آثار غير قليلة الأهمية بخصوص توسيع النوافذ الحضارية وتوسيع توجهات المستشرقين واهتماماتهم. فضلاً عن ما أنجزه المستشرقون من تحقيق المؤلفات الإسلامية القديمة نظير كتاب العوامل المائة في النحو للجرجاني وكتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني وكلاهما من تحقيق هلموت رترRitter وكتاب أمثال الطغرائي وكتاب أمثال الإمام علي بن أبي طالب وكتاب أصول اللغة العربية وكتاب إرجاع الألفاظ العبرية إلى العربية، وكتاب التحفة السنية في علم العربية للمستشرق سلفستر دي ساسي في جزأين نشرهما سنة ١٧٩٩.

كذلك قام هذا المستشرق بترجمة البردة للبوصيري، وحقّق المستشرق المعروف فلوجل الكثير من الأعمال التراجمية والعلمية في حقل الرياضيات. وأصدرت الجمعية الألمانية للإستشراق سنة ١٨٤٩ المجلة التاريخية المهمة (الشرق Oriens) وكانت هذه الجمعية تضم أكثر من ثلاثين مستشرقاً ألمانياً. وحقق المستشرق الألماني فايل Weil كتاب (أطواق الذهب) للزمخشري وترجمه وحقق معلقة الشاعر الشنفرى وألف ليلة وليلة. كذلك لابدّ من الإشارة إلى التحقيقات والأعمال الرائعة التي أدّاها المستشرق الألماني كارل بروكلمان وفستنفلد محقق كتاب طبقات الحفاظ ووفيات الأعيان وكتاب اللباب في معرفة الأنساب وكتاب المعارف لابن قتيبة وكتاب الإشتقاق لابن دريد وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي وصنع معجماً مفهرساً للحديث النبوي الشريف وهو عمل اعتمد فيه على كتب الصحاح.

وأنتج الإستشراق الإسباني تحقيقات مهمة للمؤلفات الإسلامية الأندلسية لأول مرّة نظير كتاب الصلة لابن الأبّار وكتاب تكملة الصلة لابن بشكوال وكتاب تاريخ العلماء لابن الفرضي. وحقّق المستشرق جويدي في إيطاليا كتاب الإستدراك لأبي بكر الزبيدي، وكان للمستشرقين الروس دور واضح في تحقيق أدب الصعاليك كالحارث بن حلّزة وعنترة بن شدّاد العبسي.

وفي بريطانيا حقّق المستشرقون مؤلفات الرحلات الإسلامية ومقامات الحريري وكتاب القاموس المحيط؛ وحقق المستشرق مرغليوث أعمالاً تاريخية وإدارية كثيرة.

أما البند الثاني المتعلق بالتبشير فقد بادر عدد من المستشرقين المبشّرين الأوائل ممن عني بالدراسات العربية وشجّع الآخرين على تعلم اللغة العربية؛ وكان بوستل وأربانيوس وشايد مثلاً من المبشرين لكنهم لم يؤدوا دوراً تبشيراً في الشرق كالحال التي قام بها المبشر الأمريكي صموئيل زويمر في منتصف القرن التاسع عشر غير أن أولئك كانوا المؤسسين لكراسي اللغة العربية. وقد اهتموا بالتحقيق والتأليف في المجال اللغوي بغية تسهيل إنتفاع المبشرين من المصنّفات المؤلفة باللغة العربية، وكذلك التفت بعضهم إلى التأليف عن سيرة رسول الله والقرآن الكريم.

وأما فعالية البعثات التبشيرية الهادفة إلى تحويل المسلمين إلى الديانة المسيحية، فالمؤتمرات التبشيرية كانت صريحة للغاية ولاسيما في نتائجها القاضية بفشل هذه البعثات في أعمالها لتنصير المسلمين، وفي العمل المباشر في المجتمعات التي يغلب

على أهاليها الإسلام. فهي منذ مطلع القرن العشرين لم تحقق إنجازات كثيرة كما كانت تتوقع على الرغم من المحفّزات المادية التي تعرضها وآليات التشجيع والدعم العلمي والبشري والمادي التي قرّرها المؤتمر الأول للتبشير الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦. وظل عمل هذه البعثات ضعيفاً ومتعثراً منذ ذلك الزمن حتى العقد الأول من ثمانينيات القرن نفسه؛ إذ أعلن المشتركون في المؤتمر الذي انعقد في الأرجنتين بأن الأساليب والخطط التقليدية التي دأب المبشرون على اتباعها لم تحقّق نجاحات تذكر، وبخلاف ذلك فإنها فشلت فشلاً ذريعاً في مهمتها على الرغم من التشدّد في آلية جديدة مفادها أن يُظهر المبشر أمام المسلمين عاطفة وتأييداً وإيجابية للدين الإسلامي في الظاهر فقط، وأن يندفع بحماس نحو التثقّف بالعلوم الإسلامية وبالقرآن الكريم والتاريخ الإسلامي وتاريخ السيرة النبوية وبعلم الحديث.

مع ذلك كانت النتائج مقابل هذه الفعاليات والنشاطات ضئيلة جداً، لذلك ساد في مؤتمر الأرجنتين صوتاً يدعو إلى ضرورة انتهاج خطّ تبشيري جديد يستند الى التبشير غير المباشر وعلى وفق الخطوات الآتية:-

١- إهتبال الفرص في متابعة العناصر المسلمة التي تتمتع بسمعة علمية واجتماعية عالية التي تتميّز بكفاية ثقافية ولاسيما أولئك الذين بدأت تنمو في نفوسهم عناصر غير إيمانية وخضعت لعناصر التشويش والتردّد والشكّ إزاء العقيدة الإسلامية وإزاء الدين الإسلامي ثم الإسراع إلى احتضانها بدافع أو بوساطة علمية أو دعمها مادياً ومعنوياً بهدف الإنتفاع من أمثال هؤلاء وسيلة في المشروع الديني التبشيري الجديد. وعندما يتأثر هذا العالم المسلم بعالم ـ مستشرق أو غير ذلك ـ غربي مسيحي سيكون العطاء أكثر فاعلية وقوة في إشاعة ثقافة المبشر الغربي المسيحي القائمة على التساهل في الأمان في العقيدة، وفي تعميم عناصر الشك والتردد والتساؤل عند نظيره المسلم.

٢- العمل بجديّة على نشر الدراسات الجادة والهادفة في التاريخ الإسلامي وحضارته ولا سيما التعامل مع الموضوعات الساخنة والهادفة وذلك من أجل إشاعة روح النقد والتشكيك في الحديث الشريف والروايات التاريخية. ويقصد بذلك استثمار هذه الآلية في توسيع معايير عناصر التحلّل والتفكك الأسري وإشاعة الفساد الإجتماعي، وإعمام حالات الإعتقاد بالسحر والشعوذة والغيبيات والتصوف.

وهكذا ارتدى المبشر لباساً جديداً بغية الوصول إلى أهداف لا ترتبط بعملية تنصير

المسلم بل تشجيعه على الشكّ والوسوسة وإفساد أخلاقه وعلاقاته الإجتماعية؛ وعلينا أن نتذكر الأعمال النشيطة للأب الكاهن الأمريكي فرانكلين غريم ابن الكاهن الذي كان يشرف على تعليم الرئيس بوش بأن العناية اللآهية هي التي اختارته لأن يرشح لانتخابات الرئاسة؛ ففرانكلين هذا ترأس جمعية للمساعدة في حرب أفغانستان والعراق وقد طبع الآف النسخ من الأنجيل لتوزيعها على المسلمين. والواقع كان عمل هذه المؤسسة التبشيرية نشيطا في عدد من مناطق بغداد..

٣- هناك حقيقة أخرى لا مندوحة من الوقوف عندها وهي أن المبادرة في الردّ على مزاعم كتّاب الكنيسة والعصور الأوربية الوسطى وتخرصاتهم بشأن السيرة النبوية وكذلك في الردّ على المستشرقين المبغضين لرسول الله والإسلام لم تأتِ من المثقفين العرب والمسلمين؛ إذ إن ردودهم لم تكن فعّالة إنما جاء الردُّ القوي بأقلام المستشرقين أنفسهم. وعلى سبيل المثال تصدّى المستشرق مونتغمري وات لآراء المستشرق والمبشّر الفرنسي هنري لامانس ولأقوال كتّاب الكنيسة بشكل قوي. ووقف منتقداً لما ورد عن هؤلاء في كتبه (محمد في مكة) و (محمد في المدينة) و (محمد النبي ورجل الدولة). فخصّصَ في كتابه الأخير موضوعاً بعنوان (تقويم أو إعادة تقويم (Assessment)، وتضمّن عنواناً فرعياً نصّ ترجمته الآتي: ليس هناك عظيم من عظماء العالم World Great Men قد أوذي بمثل ما أوذي محمد. فقد ظلّ الإسلام ولعدة قرون هو العدو اللدود للمسيحية. ولما كانت الديانة المسيحية تقف ندّاً للديانة الإسلامية مباشرة في القوة والعظمة، ولأن الكثير من أراضي البيزنطيين قد استرجعتها الجيوش الإسلامية ومن ثم فقدتها المسيحية لصالح الإسلام. عندها صوّبت أوربا سلاحها ضد الإسلام قبل أندلاع الحروب الصليبية وباتجاه محور ركّز على أن الديانة الإسلامية هي العدو الأعظم. فكان أحد تلك المزاعم الكنسية المألوفة في الغرب زعمهم بأن محمداً هو دجّال يريد إشباع غرائزه ورغباته. وأنه كان يعلم بزيف دعوته التي كان يدعو لها، ونال هذا الحقد اسم النبي فقد حوّر وبدّل إلى اسم آخر هو محمويوس أو ماهوند وذلك بغية مطابقته للكلمة في اللغة اللاتينية التي يعني بها إله الظلام. ونستشهد هنا أيضاً بموقف المستشرق توماس كارليل مؤلف الكتاب المشهور (الأبطال وعبادة البطل) باللغة الإنجليزية وقد ترجم إلى اللغة العربية ونشر قبل حوالي مائة سنة من نشر كتاب المستشرق وات، فالمستشرق كارليل ضمّن رسول الله مع الأبطال الذين أشاد بهم المستشرق في كتابه. وواقع الحال كان كتاب توماس كارليل في الأصل

محاضرات ألقاها على طلبته ثم طورها إلى كتاب، بمعنى أنه كان يردّ على مواقف على السيرة النبوية وعلى شخصية النبي في القرن التاسع عشر. وهناك من تداخل في مواقفه مع كتّاب الكنيسة المبغضين والمشوّهين لحقائق التاريخ الإسلامي المستشرق الإيطالي غبرييلي الذي ضمّن كتابه (محمد والفتوحات الإسلامية) الصادر في ستينيات القرن ردّاً عنيفاً على الكتابات المسيحية في العصور الوسطى، ووقف منها موقفاً منتقداً ولاسيما من التخرّصات والتفسيرات المسيئة لرسول الله.

وخلاصة الأمر فمن المفيد إعادة القول بأن المستشرقين أنفسهم قد قاموا بدور علمي مهم في الردّ وتفنيد كتابات الكتّاب الكنسيين والمستشرقين المتحاملين حتى ـ تقريباً ـ نهاية السبعينيات، ولم يبرز في أوربا والولايات المتحدة علماء غربيون أو علماء عرب يعملون في الجامعات الغربية من خصّص بلغة أوربية موضوعاً عن الإستشراق والمستشرقين أو من ردَّ على المستشرقين والدراسات الإستشراقية ولعل من المفيد أيضاً الزعم بأن المستشرقين قد كتبوا دراسات عن أنفسهم، بمعنى عن المستشرقين في محورين أو لنقل في اتجاهين:-

أ ـ الإتجاه الأول:- ضمن بعضهم تأليف الكتب والدراسات التعريفية بالإنجازات العلمية التي أنجزها الغربيون، بصيغة دراسات أو تحقيقات المستشرقين مصنّفة حسب البلدان التي ينتمون إليها. فالمستشرق البريطاني آربري Arberry ألف كتاباً بعنوان (المستشرقون البريطانيون) وقد ترجم إلى اللغة العربية ونشر في لندن سنة ١٩٤٦. والموضوع الذي تناوله البروفسور آربري هو التركيز على نشاطات وإنجازات البريطانيين من المستشرقين والمستعربين فيما يخصّ الدراسات العربية والإسلامية دون تحديد ضيق لعصر الرسالة مثلاً أو للعصر الأموي وكذلك دون تحديد خاص بالدراسات التاريخية؛ إذ شمل الكتاب العلماء الذين أولوا عناية بالتراث الشرقي العربي الإسلامي. كذلك نشرت المستشرقة الألمانية رِوي بارث كتيباً مهماً بعنوان (الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ ثيودور نولدكه). ويتناول هذا الكتاب نشاط المستشرقين الألمان الذين أسهموا كثيراً في دراسة التراث الإسلامي وفي تحقيق المخطوطات منذ القرن التاسع عشر. كذلك نشرت كتاباً آخر بعنوان (الدراسات العربية في أوربا منذ البداية إلى مطلع القرن العشرين) وركّز هذا الكتاب على الإنجازات الأوربية عامة والألمانية على وجه الخصوص في التراث العربي الإسلامي.

فالملاحظ على العنوانات التي أشرنا إليها دعماً لتوجّه المستشرقين في إجراء دراسات تعريفية بإنجازاتهم أنها عنوانات لا تتضمّن أي مظهر من مظاهر الطعن في الإسلام، إنها دراسات تعريفية وصفية لما حقّقه المستشرقون من دراسات وتحقيقات تاريخية ولغوية في اللغة العربية والأدبية والجغرافية وغير ذلك. وقد استمروا في إجراء مثل هذه الدراسات حتى نهاية السبعينيات تقريباً حين ظهر كتاب البروفسور سعيد باللغة الإنجليزية. فهذا الكتاب لا يتعامل مع المستشرقين من منطلق تعريفي ووصفي إنما في الواقع هو كتاب ناقد للحركة الإستشراقية برمتها؛ معتمداً على منهج تحليلي لأهداف المستشرقين وأغراضهم مسلّطاً الضوء على الجوانب السياسية المرتبطة بالإستعمار ومعرضاً بالنظرية الغربية الإستعلائية إزاء الآخر بما يؤمن به المستشرق الأوربي من سيادة الحضارة الغربية وهيمنة الفكر الغربي على غيره من الثقافات غير الغربية. آخذين بنظر الاعتبار أن البروفسور سعيد ليس من المستشرقين، والراجح أن إنتاجاته الغزيرة لا تقع ضمن دائرة الإستشراق. لقد اندفع البروفسور سعيد من دافعه الوطني والقومي الفلسطيني تجاه السياسة الإستعمارية البريطانية ضدّ البلاد العربية، فالدافع الأساس لكتابه هو الدافع السياسي.

ب:- اتخاذ خطوة علمية بالغة الأهمية في إعادة تقييم للإسهامات الغربية الإستشراقية، ولا سيما الإسهامات التي تعرضت بالتفصيل في هذا الميدان بصيغة دراسات مستقلة فردية أو تلك المعروضة ضمن كتاب عام يتناول عدة قضايا مثيرة وحساسة تتعلق بسيرة سيد الأنام وشمائله والوحي والنبوة والقرآن الكريم والحديث الشريف بوصفها المصادر الأساس في دراسة تاريخ السيرة النبوية وتاريخ القرن الأول للهجري / السابع الميلادي. فقد عرض عدد غير قليل من المستشرقين تفهّماً جلياً تجاه التفسيرات إزاء تلك القضايا المذكورة آنفا وأبانوا عن مواقفهم المعارضة لها. فالمستشرق الإيطالي غبرييلي أبدى وجهة نظره بكتابات الكتّاب الأوربيين في العصور الكنسية والوسطى واصفاً إياها بأنها مجموعة ترهات وتفاهات لا تستحق عناء الردّ والتعقيب؛ لأنها تعبّر عن منهج حاقد ومبغض.

هناك في المقابل ثمّة ملاحظات بشأن إسهامات الدراسات العربية الإسلامية حول الإستشراق نأمل بالفعل ملاحظتها وإعادة النظر فيها بغية تجاوزها في دراساتنا المستقبلية منها:-

١- لابد من الاعتراف بأن الموقف في الكتابة العربية الإسلامية عن المستشرقين لم يزل موقفاً إستعراضياً في العرض والأداء، كذلك ـ وهو الأهم ـ دفاعياً بشكل واضح بمعنى الدفاع عن رسول الله وعن شمائله وأخلاقه ونبوته، والدفاع عن الإسلام وعن القرآن الكريم والوحي. وهذا ما نلحظ وجوده في الدراسات الأكاديمية العليا، فالباحث هنا لا يضع في حساباته عند اختياره بحث أو دراسة مدرسة استشراقية معينة أو مستشرق واحد إنجليزي أو ألماني وما إلى ذلك إلا في ميدان واحد وهذا الميدان معنيّ فقط بإظهار موقف تلك المدرسة أو مستشرقيها فيما يخص السيرة النبوية والمجالات القريبة منها.

٢- كذلك علينا الاعتراف أيضا بأن موقفنا الذي ابتدأ بالجدل حول المستشرقين في الثلث الأول من القرن العشرين لم يزل نفسه ماثلاً حتى يومنا هذا. وهو موقف يوصف بالتردّد النسبي في نظرتنا للمستشرقين بين أن. المستشرقين جميعاً مسيئون ومبغضون وكارهون وبين موقف يعتمد معايير البعضية أو العددية بمعنى البعض من المستشرقين هم معتدلون وموضوعيون في دراساتهم، والبعض الآخر هم مسيئون وحاقدون. مع أنه معيار ـ أي البعضية والعددية ـ ضعيف لأنه لا يعرض موضوع البحث عرضاً موضوعياً وحاسماً. لهذا فالحاجة ماسّة إلى إعادة نظر في القوائم التي صنعت للمستشرقين المعتدلين أو في القائمة البيضاء وقائمة أخرى المستشرقين المسيئين أو في القائمة السوداء. واللازم أن تكون مواقفنا مبنية على مجمل أعمال المستشرقين أو مجموعة منهم ضمن مدرسة واحدة أو في إطار الإنتماء الواحد من دون إغفال لطبيعة المرحلة التاريخية في العلاقة بين الغرب والشرق وطبيعة الظروف والتطورات السياسية والإقتصادية وأهمها الدينية في هذه المدة أو تلك. فهذه المتغيرات تؤدي دوراً فعّالاً في تبلّور موقف إستشراقي معيّن أو اختفاء آخر أو تغيره إلى موقف آخر وهكذا.

٣- وعلينا أن نعترف بمحدودية الزاوية أو التوجه في دراستنا العربية الإسلامية تجاه الإستشراق. فلم تزل هذه الدراسات مقتصرة ـ بنسبة مئوية عالية ـ على موضوعات معينة كالمستشرقين والسيرة النبوية أو المستشرقين والإسلام أو الإستشراق والتبشير أو الإستشراق والدراسات القرآنية أو الإستشراق والإستعمار.

٤- بينما وصل المستشرقون في مؤتمرهم الأخير في باريس سنة ١٩٧٣ إلى قرار التوقّف عن الحركة الإستشراقية وعن استعمال تعبير المستشرق والإستشراق كما وقفنا

عليه سابقاً عدة مرّات، تمسّك الكتّاب والباحثون العرب والمسلمون وما زالوا إلى حدّ الآن يلحّون على استخدامه ويصّرون على وجوده وفاعليته وفي الميادين التقليدية نفسها. في الوقت الذي نلمس بصورة متزايده وواضحه أن الدراسات الإستشراقية عن رسول الله والأحاديث الشريفة والدراسات الفقهية والقرآنية في أوربا ضعفت في الكم والنوع أو في أحسن الأحوال قد أخذت بالضعف وعدم الأصالة والجدّة، إذ لم نلحظ دراسات بالعدد والنوعية العلمية نفسها في هذه المجالات كالتي وقفنا على ذكرها ما قبل عام ١٩٧٣. كذلك ربما صحيح القول بأن حماس المستشرقين ورغبتهم في تحقيق المخطوطات بات ضعيفاً. والظاهر أنهم قرّروا ترك هذا الميدان إلى أهله من المحققين والعلماء العرب والمسلمين، مع العلم أن المحقّقين المحليين كانوا يضعون التحقيقات الأوربية ـ أي المؤلفات المحقّقة سابقاً والتي يراد طبعها أو تحقيقها ثانية ـ أمامهم للاستعانة بها أو لتقليد مناهجها في التحقيق والفهرسة، وأحياناً قد لا يجد المحقق العربي خيارا سوى التقليد والتكرار كلياً أو جزئياً.

٥- ونلاحظ نهوض مدرسة الإستشراق الأمريكية والإسرائيلية بشكل سريع وملفت. ففي الوقت الذي اعتمدت بدايات الإستشراق الأمريكي خبرات وتجارب المستشرقين الأوربيين العميقة، إذ ترك الكثير من هؤلاء بلدانهم الأصلية وقرّروا الانتقال للعمل في الجامعات أو في المعاهد والمراكز العلمية الأمريكية المتخصّصة في حقل دراسات الشرق الأوسط. من الجانب الآخر فإن مباني الإستشراق الإسرائيلي قد استندت الى عدد من العلماء اليهود الصهاينة الذين أكملوا دراساتهم العليا في الجامعات البريطانية العتيدة في سمعتها وتاريخ تأسيسها في دراسات تتعلق بالشرق؛ فضلاً عن الجامعات الأوربية، الألمانية، والفرنسية، وعلى نفقة مراكز ومؤسسات علمية صهيونية. وقد تخصص هؤلاء في حقول معرفية محدّدة وهادفة من التراث العربي الإسلامي.

وفي هذا الصدد لابدّ من ملاحظة تطوّر جديد آخر في موقف المستشرقين الإسرائيلين موازنة بدراسات المستشرقين اليهود القدامى المعروفين. فهناك من يرى أن المستشرقين الإسرائيليين المعاصرين قد أعلنوا القطيعة مع المستشرقين اليهود القدامى الذين أظهروا مواقف إيجابية وموضوعية تجاه فلسفة التسامح الديني في الإسلام مع أهل الكتاب نظير موقف المستشرق الألماني اليهودي فايل Weil المتوفى سنة ١٨٨٩ والمعروف أنه درس السيرة النبوية في كتابه بالألمانية (حياة محمد)، والمستشرق الهنغاري اليهودي المعروف أيضاً أغناص غولد تسيهر صاحب المؤلفات الكثيرة عن

العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي. فالملاحظ أن هذا المستشرق زار الأزهر في القاهرة وصلى جماعة مع المسلمين وكانت له علاقة طيبة مع جمال الدين الأفغاني، وقد رأى في الدين الإسلامي عقلانية وتسامحاً وتفهّماً افتقدتها الديانة اليهودية عند مفارقتها أصالتها. والطريف الإشارة إلى نظرة الكثير من المفكرين والمؤرخين العرب والمسلمين إلى غولد تسيهر غير الإيجابية وعده من النماذج على الإسلام، وفي رأي البعض أنه يعدّ من ألدّ أعداء الإسلام وهم يصنفونه دائماً ضمن القوائم السوداء للمستشرقين غير المنصفين.

فمعركة الصهيونية آيدلوجياً مع العرب والمسلمين تستنكر استنتاجات ورؤى المستشرقين اليهود القدامى وتعدّهم - في علاقاتهم مع التاريخ الإسلامي - بمثابة أعداء للفلسفة السياسية الصهيونية. فالصهيونية تسعى بكل جدّية إلى دعم دراسات تواكب حربها الفعلية وهي حرب أيدلوجية تستهدف من بين ما تستهدفه محو الذاكرة التاريخية القديمة بفرض مباني جديدة مؤسّسة على مذهب الحقد والكراهية لكل ما هو عربي وإسلامي وشرقي. ونودّ هنا التلميح إلى مسألة طريفة تظهر مدى التطوّر الحاصل في النزعة النقدية وفي العقلانية والحداثية بين صفوف المستشرقين اليهود أنفسهم؛ إذ نشرت مجلة (قضايا إسرائيلية) في عددها لصيف ٢٠٠١ بحثاً مثيراً بقلم أحد الكتّاب الفلسطينيين من أهالي حيفا هو هشام نفّاغ وعنوانه (رؤية أولية لمشاكسة علمية جديدة نفي الأسطورة وجديّة الكشف عن الحقيقة)[١]. ويقف البحث على مسألة كشف مهم للعالم الأثري زئيف هرتسوغ الذي يعمل في جامعة تل أبيب يقول فيه: - إن نسبة ٩٠٪ من الباحثين (ربما يقصد من الأثريين) اليهود متفقون على عدم صحة الخبر الوارد في التوراة عن قصة خروج بني إسرائيل من مصر وأن ٨٠٪ منهم يعتقد بعدم واقعية الأخبار المتعلقة باحتلال بني إسرائيل البلاد كما ورد ذكره في التوراة و أن ٥٠٪ منهم يعتقد بعدم صحة الأخبار الواردة بشأن مملكة بني إسرائيل وأنها موحّدة وعظيمة الجانب. وهؤلاء لا يوافقون أيضاً على الأخبار حول تحديد جبل سيناء بوصفه مهبط نزول التوراة، وأنهم لم يصدقوا بصحة الأخبار حول عظمة مدينة كنعان وأنها محصّنة بحصون قوية تناطح رؤوسها السماء. ويستمر هذا البحث في الإعلان عن أن نتائج التنقيبات التي أجريت في القدس عاصمة مملكة بني إسرائيل الموحّدة كانت مخيبة

---

(١) بارث، رودي، الدراسات العربي ص ١٠.

للآمال اليهودية، إذ لم يتمّ العثور على شواهد ترجع إلى حقبة مملكة إسرائيل الموحّدة، وعلى الضدّ من ذلك كانت زمن الملكين داود وسليمان مدينة صغيرة، وربما كان لها حصن للملك، لكنها على أية حال لم تكن مدينة عظيمة ومحصّنة بحصن منيع كالذي جاء وصفه في التوراة[1]. والمهم أن الكشف عن مثل هذه المكتشفات الأثرية غير محبّذ في نظر الساسة الصهاينة؛ لأنها ستغير الكثير من المفاهيم الراسخة المرتبطة بالمعاصرة في نظر الصهاينة. ولذلك ـ حسب قول الباحث ـ وقف الصهاينة منها موقفاً رافضاً.

٦- ومن النقاط الأخرى الجديرة بالذكر أننا ـ من الراجح جداً ـ سنشهد في مدة ما بعد انتهاء مرحلة الإستشراق وفي أوربا تزايداً في حجم العلماء والباحثين العرب والمسلمين المتأثرين بالمنهج الإستشراقي البحثي أو ما يسمى بالمنهج العقلاني وبمناهج ما بعد الحداثة في التعامل مع الماضي الإسلامي التقليدي أو، بوصف آخر، مع التراث الإسلامي المتعلق بتاريخ السيرة النبوية الشريفة والدراسات القرآنية وأحداث التاريخ الإسلامي وأطروحة الحضارة الإسلامية بوصفها من أرقى الحضارات التي أسهم فيها العلماء العرب والمسلمون بعطاءات متميزة جداً. فالمتابع لعنوانات الدراسات المعاصرة ومناهجها ومضامينها سواء أكان ذلك في المغرب أم في مصر أم في لبنان أم في إيران يلاحظ تنامي التيار الحداثوي في المواقف المتقاطعة تقاطعاً خفيفاً أو شديداً مع التراث الإسلامي، إن لم يكن مع تراث الماضي الذهبي للإنسان المسلم. بينما يعيش الآن في حاضر مكفهر وسلفيّ ومتخلّف. هو واقع سيقود حتماً إلى زيادة في النزعات العقلانية في البحث والتدوين التاريخي نحو هدف ربما بالغ الخطورة وهو إلغاء ذلك التعلّق بالماضي أوالتشدّد في تأكيد سلبيته والإنضواء كليّاً تحت خيمة ذكرياته الجميلة والمزدهرة في وقتها. وسبب ذلك كلّه يرجع إلى أن العقل العربي يشهد منذ نهاية القرن التاسع عشر أشبه ما يكون بثقافة الشرخ ـ وهو تعبير بات يتكرّر بين أوساط المثقفين العقلانيين وغير العقلانيين ـ ويقصد به حالات التوتر والتناقض المستمرة بين الجذور الفكرية والثقافية العربية الإسلامية قبالة الثقافة الغربية العلمانية التي انسلخت عن رمزها التراثي ـ الدين المسيحي ـ متمثلة بنزعة الفصل بين الدين والسياسة. إنه اتجاه جاذب ومغري قد

---

(١) نفّاع، هشام (نفي الأسطورة وجدية الكشف عن الحقيقة، كشف العالم الأثري في جامعة تل أبيب زئيف هرتسوغ) مجلة قضايا إسرائيلية العدد الثالث صيف ٢٠٠١.

انجذب إليه المثقف العربي والمسلم إنجذاباً سريعاً؛ لأنه يعيش يومياً مأساة، ويشهد تراجعاً سريعاً وتخلّفاً مفضوحاً ودكتاتورية سياسية استعمارية هدفها تجويع الشعوب العربية والإسلامية مادياً وثقافياً وإذلالها تنفيذاً لمشروع العولمة الأمريكية. وواقعاً فإن هذا (الشرخ) صار واسعاً ومهدّداً وخطيراً لاستمراره في التوسع في هذه العقود من القرن الواحد والعشرين وأنه في اتساع متزايد في المستقبل بحيث أخذ يهدّد الهوية الثقافية لإعلان المثقف المعاصر تمرّداً على التقليد والمألوف والسلفي بل إعلان القطيعة المعرفية مع التراث الذهبي العظيم الذي شيّع إلى مثواه الأخير وورثه الغرب وطوّره إلى حضارة استعلائية. والأنكى من ذلك أنه سيؤدي إلى التقليل من شأن التراث وتوجيه اللوم إليه بوصفه العامل الأساس في تخلّف المجتمع العربي الإسلامي وتدهوره.

ومداخلة متواضعة مع هذه الطروحات والأفكار الناتجة بالفعل من المعاناة التي يعيشها الفرد العربي بوجود هذا السياج الفولاذي المفروض عليه من السلطات الحاكمة الدكتاتورية والجائرة. لذلك بات المثقف العربي يتطير من اللباس الذي يتزيّا به الحكّام وغيرهم من المسؤولين، لباس الدين والنزاهة والعفّة، لكن واقعهم غير ذلك إنه واقع مبنيّ على الغشّ والسرقة وكبح الآخر وقتله. فالمثقف العربي يرى ما هو واقع فعلاً في العالم المجاور لعالمه من تقدم واحترام للفكر ومن حرية في العمل والتفكير، فيعتقد ـ وهو على حق في اعتقاده ـ بأن سبب نكبة العرب وتخلّفهم هو التعلّق بالماضي والتراث الذي ظلّ قروناً يخدم السلطات الحاكمة الجائرة وظلّ يمارس بأيديهم ضد حرية الفكر والعقل وهما من الأسّس القوية التي ازدهر بها التراث الإسلامي. ومع كل ذلك فالحكمة ترى بعدم إعلان قطيعة كاملة مع الماضي؛ لأن الماضي يضمّ كمّاً هائلاً من الإيجابيات، وعلينا عدم المبالغة في إقصائه وازدرائه وجعله السبب في ذلك التخلّف، فتخلّفنا الآن وغداً لا يرجع إلى سبب تعلقنا بالماضي الزاهر لكنه تخلّف بالممارسة أي ممارسة السلطات الفردية المتعسّفة وإلغائها دور العقل. فاحتكار هؤلاء للسلطة ودعمهم الأفكار السلفية والمتصوفة، كان السبب الرئيس في خمود الإبتكارات، وكما عبّر عنها ابن خلدون ((فكسدت أسواق العلم))، وتحجّرت العقول النيّرة، فكان التخلف والخمول. والمفروض على المثقف العربي أن يفوّت الفرص على أمثال هؤلاء الطغاة والنظر إلى التراث بالعقل والعمل وعلى شحذ الهمم وإعادة الزيت إلى الماكنة لتدور بجدارة ونشاط كما عملت في

الماضي، وأن لا نغلق النوافذ بوجه المؤثّرات الحضارية. وعلينا الآن ـ في الحقل الذي نخضعه للبحث وهو الإستشراق ـ التخلّص من عقدة الدفاع فقط فرسول الله والإسلام الحنيف ليسا بحاجة إلى دفاع ضدّ تخرصات بالية وترهات أملتها العاطفة الدينية للعقلية الكنسية. وحسب ما نشهده الآن فإن الإسلام يدخل البيت الأوربي بل العقلية الأوربية والسياسة الغربية. نحن بحاجة إلى إعادة تقويم لمناهج بحوثنا واعتماد العقلانية والموضوعية في دراسة الآخر ولكن بأسلوب حضاري جديد وهجومي من جهة أخرى، نقديّ وعلمي من جهة وتاريخي أي في تاريخ المسيحية والعقلية الأوربية من جهة ثانية. فالآخر (المستشرق) قد أخضع تراثنا الإسلامي للدراسة والبحث فأضحى الشرق موضوع دراسته. وطالما كان المستشرق لا يمتّ إلى الجذور التاريخية نفسها في التخصّص الذي هيمن عليه فقد توصّل بالنتيجة إلى فرضيات ومفاهيم وتفسيرات منطلقة من فلسفته ودينه ومحيطه الحضاري، ذلك المحيط الذي ظل لقرون ينظر إليه كمحيط حضاري مهيمن أيضاً بهيمنة الجنس الأشقر. كل هذا حدث لأننا تركنا دراسة تراثنا بأسلوب أو منهج إسلامي عقلاني.

فعلى المثقف العربي في هذه المرحلة والمستقبل أن يقدم،على وفق منهجية موضوعية ودقيقة، الى دراسة الآخر دراسة حضارية، وتاريخية ودينية لكون الإسلام دين محبة كالحال في المسيحية. الإسلام دين تلاقحت فيه الحضارات لتسامحه، كذلك فإن المجتمع العربي الإسلامي مجتمع استوعب حوار الحضارات والمؤثرات بروح منطلقة من الآية الكريمة (لكم دينكم ولي دين).

كلمة أخيرة:

تقع على المثقف العربي مسؤولية ثقيلة متمثّلة بمدى توفيقه ونجاحه في الولوج إلى العقلية الغربية وتفهّمها؛ وبتوسيع دائرة دراساته وبحوثه دون تحديد ودون أن يحجّمها بحدود زمنية أو محليه أو إقليمية. فإذا ما قدّر له ذلك أي في أن ينفذ إلى الغرب بلغاته المتعددة أو باللغة الإنجليزية على أقلّ تقدير عندئذ يحدث هذا ضجّة، وإحداث ضجّة عنصر حضاري في الفعل وردّ الفعل. فالمتعارف أن الضجّة لا تقع إلا إذا تمثّلت بتحدٍ مقروء في الغرب. وبهذه الطريقة، وطرق أخرى مساعدة، يفلح المثقف في سحب الورقة التي طالما كان الغرب يستثمرها ضدّاً بالتراث العربي الإسلامي وضدّاً بالمعادلة التي أصبحت راسخة في العقلية الغربية الإسلام = الإرهاب. وما حديث

رئيس الوزراء الإيطالي السابق برلسكوني ضد الإسلام، وما حديث البابا بندكيت السادس عشر ضدّ الرسول الكريم والإسلام، وما عنجهية القسّ المغرور تيري جونز في فلوريدا لحرق مائة نسخة من كتاب الله العزيز، وما المواقف التي عبّر ويعبّر عنها مسؤولون وغيرهم ضد الإسلام إلا نتيجة جلّية لغياب مواقف المثقف العربي والمسلم في التعريف العلمي النافذ بالإسلام وبقدرات العرب والمسلمين العلمية وبكفايتهم وجدّيتهم، وكذلك لغياب المثقف العربي والمسلم في دراسة حضارة الغرب نفسها والديانة المسيحية والديانة اليهودية وما إلى ذلك. فموقفنا إزاء هذه الإشكالية ضعيف جداً، بينما تحوّل جلّ اهتمامنا إلى صيغة العرض القوي والمباشر داخلياً، ونحن بحاجة إلى مثل ذلك في أن ينفذ إلى الخارج الى الغرب. ففي إيران ومنذ عقود خلت أخذوا بمبدأ ترجمة دراساتهم العلمية والإنسانية والإسلامية إلى لغات أوربية حيّة وسارعوا إلى عقد مؤتمرات علمية عالمية حول موضوعات عقائدية نظير (دكترين مهدويت) حول عقيدة المهدي و (الإسلام والمرأة) أو (الإسلام والعلم). كذلك بادروا إلى توسيع الدعوات للعلماء والمستشرقين والمهتمين بالإسلام عامة والإسلام الشيعي الإمامي، وشملت هذه الدعوات العلماء الغربيين أو العلماء المسلمين الذي يعملون في الجامعات والمراكز العلمية والإنسانية الغربية. وموازنة بهذا فاستجابة العرب مقصورة وشحيحة لا تقارن بالبذخ الزائد عن الحاجة في الصرف المترف على قضايا كمالية أو فكرية محلية.

واقعياً ـ بحدود الموضوع تحت البحث ـ فإن كتاب البروفسور أدوارد سعيد (الإستشراق) وكتاب البروفسور هشام جعيط بالفرنسية (الإسلام في أوربا) ومؤلفات البروفسور محمد أركون باللغة الفرنسية هي الذائعة والمعروفة والمعتمدة في أوربا، والتي استجابت لها العقلية الغربية إن سلباً أو إيجابا.